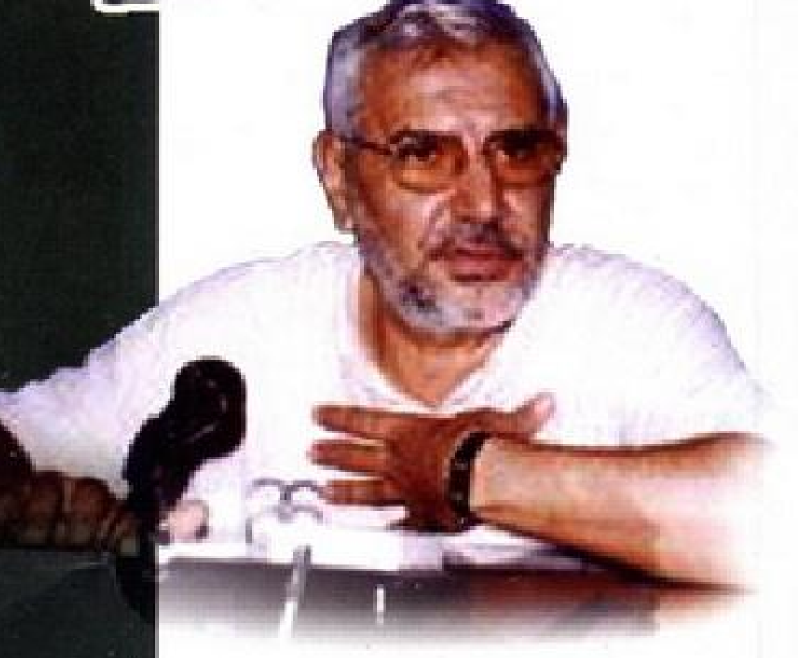


مجددون لا مبددون



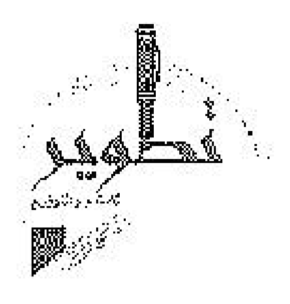
د. عبد المنعم ابو الفتوح

مجددون
لا مبددون



الطبعة الأولى
٢٠٠٥م – ١٤٢٦هـ

رقم الإيداع
٢٠٠٥/٩٢٥٢٦



فهرس الموضوعات

المقدمة

يقول العلماء: إن التوسع في إيجاب الموجبات، والتضييق في إباحة المباحات، واختيار أضيق الأمور وأجلبها للحرج والمشقة، مع توفر البديل الذي يرفع الحرج ويجلب التيسير.. ليس من الدين في شيء من ناحية الالتزام، وليس من الفضل في شيء من ناحية القدرة والجهد.

وكما يقول سفيان الثوري: «ليس العلم في التشديد؛ فإنه يحسنه كل أحد»!!

والجمود والتشديد يعطيان انطباعًا خاطئًا عن الشريعة، ويصوران للناس أن طاعة الله أمر عسير ومشقة وتعب؛ مما يغري كثيرين بالإعراض عن «جملة الشريعة» كما يقول ابن قيم الجوزية! مع أن الشريعة في الأساس جاءت لتحقيق التيسير ورفع المشقة والحرج؛ ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، ويقول: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦].

ولم يخيَّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا.

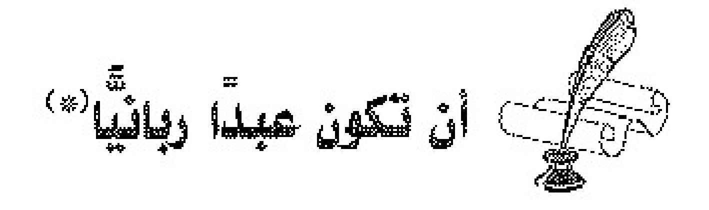
كتاب «مجددون.. لا مبددون» هو في الأصل مجموعة من المقالات والدراسات كنتُ قد كتبتها للصحف والمجلات الدورية، وقد أشار عليَّ بعض إخواننا وأصدقائنا بتضمينها في كتاب؛ لما تصوروه من وقوع فائدة في ذلك، وحيث أشكر لهم حسن ظنهم، فإنني أتوجه إلى الله العلي الكريم أن يتقبل ذلك كله في مجرى العبودية الخالصة له سبحانه، والرجاء المنقطع من كل وصْل إلا وصل رحمته سبحانه.

فاللهم أدخلنا في رحمة منك وفضل، واهدنا إليك صراطًا مستقيمًا.. آمين.

عبد المنعم أبو الفتوح

القاهرة ٢ جماد أول ١٤٢٦هـ

٢٠٠٥/٦/٩م.



أن تكون عبدًا ربانيًا(*)

نعلم جميعًا أن لفظ «العبادة» ليس معناه فقط الأعمال التعبدية؛ كالصلاة والصوم والحج، إنما يتسع ليشمل كل فعل وكل تفكير وكل إحساس يصدر عن الإنسان المسلم يقصد به التقرب إلى الله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن مظاهر العبودية المهمة التفكر والتعقل والتدبر، تلك الصفات التي تعكس حالة التسليم العقلي الكامل لعظمة الله وقدرته، إلى حد أن كثيرًا من العلماء اعتبروا أن القناعة العقلية أحد أهم مرتكزات التسليم بالعبودية الكاملة، وقد أحصوا الدعوة إلى التفكر والتذكر والتعقل التي أوردها القرآن؛ فوجدوها في أكثر من ثلاثمائة آية! وكانت الدعوة إلى التعامل مع العلم وتعظيم العلماء ونبذ الجهل والجاهلين من التكليفات القرآنية المهمة، وتذكر الآيات في سورة «آل عمران» نموذجًا للإنسان العاقل المفكر الذي ينشد الحقيقة؛ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ [آل عمران: ١٩١].

ومن مظاهر العبودية المهمة أيضًا: التوكل والاعتماد والتفويض الكامل لله سبحانه وتعالى، ويعتبر العلماء أن هذه الصفات ما هي إلا

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٨٤، ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٤م.

محصلة طبيعية للإيمان الواعي بالله سبحانه وتعالى؛ الذي تخضع له السماوات السبع والأرضون السبع، وكل ما في الكون من خلق وحوادث ومقادير إنما ترجع إليه؛ ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

ومن أحب الله وتوكل عليه هان عليه كل شيء، ومن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن وحَّد الله لم يشرك به شيئًا، ومن آمن بالله أمن من كل شيء، كما كان يقول الإمام أبو الحسن الشاذلي ﷺ، ومعروفٌ حب الأستاذ البنا -رحمه الله- له، ويحتاج هذا المعنى دائمًا إلى التذكير والتواصي بأن الكسل والاتكال من الصفات المرذولة التي هي أبعد ما تكون عن العابد الراشد، الذي يعي ويدرك أن الله قد وضع لهذه الدنيا قوانين وسننًا لا تتبدل ولا تتغير، والتمرد عليها والتنكر لها مخالفة صارخة لمعنى العبودية الحقة.

ومن مظاهر العبودية أيضًا التسليم الكامل بقضاء الله وقدره، والرضا عنه سبحانه وتعالى، فربنا سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا، وهو سبحانه «الحكيم» لا يعبث، وخلق كل شيء فقدَّره تقديرًا، وهو سبحانه «الرحيم» لا يقسو، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، والعابد الراشد يعيش حياته بين الخوف من الله سبحانه والرجاء في رحمته التي وسعت كل شيء.

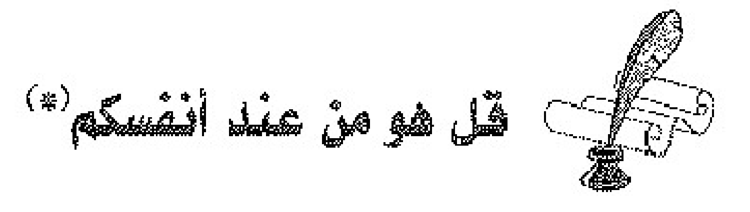
ومن مظاهر العبودية الحقة السعي والنجاح ما استطعنا في أداء ما وجب أداؤه علينا من جوانب الحياة كلها؛ على مستوى الأسرة والعائلة، وعلى مستوى المجتمع التزامًا ومشاركة، وعلى مستوى الوطن وخدمته والاهتمام بهمومه.

وبالطبع يتحتم التذاكر الدائم والتناصح المستمر بأعمال التعبد الفردية؛ كالصلاة والدعاء والاستغفار؛ «أحصن حصون المسلم من وقوع البلاء على المعاصي في الدنيا»، تلك الأعمال التي تجعل العابد دائمًا يشعر بالخضوع والخشوع والذل لخالقه وبارئه.

وعلى ذلك فالعبودية هي التي تجعل الإنسان يشعر بالقيمة، وينزع في كل حركاته وسكناته إلى الكمال ما استطاع، وينحو نحو الخير دائمًا في ظنونه وأقواله وأفعاله، وتلقائيًّا يتكون داخله نفور مقيت من الرذيلة والقبح، ولنا أن نتخيل الآثار النفسية والاجتماعية والعمرانية والحضارية التي تترتب على صياغة إنسان بهذه الفضائل، والأروع والأروع هو ذلك التحرر من سيطرة أي شيء أو الخضوع لأي شيء، وتحطيم كل أشكال العبوديات الزائفة من سلطة ومال وجاه؛ «الذئاب الثلاثة» التي تحدَّث عنها العلامة الدكتور عبد الوهاب المسيري في مذكراته، والتي أنصح كل أبنائنا وشبابنا بقراءتها.

هكذا نجد أنفسنا أمام تراكم لمجموعة من أروع الصفات الإيمانية والفكرية والأخلاقية، والتي تجعل الإنسان المسلم «عبدًا ربانيًّا»، تلك الجملة التي تعني فيما تعني أن يكون هذا الإنسان صاحب رسالة ودعوة يلتزم بها شخصيًّا ويتعايش بها بين الناس قرآنًا متحركًا.

***



قل هو من عند أنفسكم(*)

دروس التاريخ هي عبره وعظاته ومعانيه المستخلصة من سير السابقين وتجاربهم، وهي التي تفتح طريق المستقبل للأمم كي تتقدم للأمام على نحو أفضل ممن سبقها؛ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١].

وهذه الدروس والعبر هي لأولئك الذين يملكون العقل الراشد الحصيف، فيتفكرون ويعقلون ويفقهون، ومن الدروس المهمة التي يجب أن نعيها جيدًا ونتذكرها دائمًا ذلك الدرس الذي أخرج أمة مستضعفة؛ كان بعضها يقاتل بعضًا من أجل ناقة وبئر ماء.. من الخرافة والرِّق العقلي والضعف والمهانة، إلى رحاب الحقيقة الواسعة، والانعتاق، وكرامة الإنسان وعزته؛ بسحق كل أشكال العبوديات؛ لتكون العبودية لله وحده، والدرس الذي علم الإنسان الكرامة والرفعة والتقدم في طريق ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢] و﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] و﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]، ذلك الطريق الذي تكون نتيجته حرية الإنسان وكرامة الإنسان وكل حقوق الإنسان وتقدمه الدائم المستمر في مجال التفوق والعطاء والخير، ورأينا كيف كان هذا الإنسان يسير لينشر النور في مشارق الأرض ومغاربها؛ من الصين شرقًا إلى أوربا غربًا.

ما الذي حدث؟! ولِمَ هذه الصورة البائسة التي تبدو عليها الأمة الآن؟!

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٢٣، ٤ سبتمبر ٢٠٠٣م.

الجـواب -ببـساطة شـديدة- يكمــن في دروس التـاريخ وعظاتـه وقوارعه، فعندما تغلـب الـذين لم تُنر دعـوة الإسـلام في قلـوبهم مـن «الطلقاء» بسماحة الإسلام؛ بدا وظهـر أول سـبب لمـا نحـن فيه الآن، وظل هذا السبب يسوء وتمده روافد أكثر سوءًا؛ حتى بلغ الـسوء حـدًّا أكثر مما هو عند الغير، وبموجـب «الـسنن الكونيـة الغلاّبـة» و«قـانون الصلاحية العام» استلم الزمام الأقل سوءًا، وبذلك التحول نحو الأسوأ تعطلت رسالة الأمة التي هي خير أمة؛ تعطلت رسـالة الخـير الـتي هـي تقدم مستمر وتجدد دائـم وعطـاء لا ينتهـي، وأصـبحت متـسولة علـى موائد الأمم الأخرى التي لها في مجـال ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقـرة: ٣١] كل يوم اسم جديد، الدرس مكتوب بالخط العريض، وتكاد تنفجر حروفه غيظًا وكمدًا!

كان من الممكن أن يكون القرن الماضي قرن صحوة ويقظة ونهضة للأمة، فقد جاءت سـنن الله الغلابـة بـدروس وتجـارب مكتوبـة بالـدم والمأساة، فلا تنساه إلا أمة يكاد يكون مكتوبًا عليها المحو والزوال.

ففي أوائل هذا القرن كانت الأمة تحت وطأة الاستعمار، وجـاءت صيحات المصلحين؛ وعلى رأسهم منقذ الشرق «جمال الدين الأفغاني»، وتلاميذه العظام «محمد عبده»، و«رشـيد رضـا»، و«الكـواكبي»، و«ابـن بـاديس»، و«حـسن البنـا».. وآخـرون، ولكـن الأمة لم تحقـق أسـباب الخروج من الظلمات؛ حيث للسلبيات السيادة في اللاوعي العام للأمة، وحيث الخلل في التفكير، والخلل في التربيـة، حيـث سـيادة الـشكليات على المضمون والجوهر، وتـذكروا النهـضة (الديكوريـة) الـتي سـادت المنطقة في الخمسينيات والـستينيات؛ حيـث الأقـوال الرنانـة والأفعـال

الصفر! حيث العقل متهمًا، والتفكير مجرَّمًا، والثقافة (طقطقة) اللسان بأقوال الزعماء وخطبهم! حيث غياب الأمة وبزوغ الأصنام؛ «عبد الأحجارَ آباءٌ مضوا.. وعبدنا بشرًا أمثالنا»، بيدهم الموت والحياة والرزق، والرفع والخفض، بكلمة يقتلون، وبكلمة يقطعون أرزاق الناس، وبانتهاج سياسة السلب والنهب والفساد والإفساد يتركون الأمة للمجاعات والفقر والمذلة والهوان، وضاع حق كل إنسان في بيت وكساء وطعام على النحو الذي يشعره بالكرامة والاحترام، «لا تتركه يموت ولا تدعه يحيا»!!

فشلت الأمة في رسالتها، وتوقفت عن أي تقدم، ولم يعد يومها خيرًا من أمسها، ولا غدها خيرًا من يومها، ورغم كل ذلك لا يزال الأمل قائمًا في طلائع الأمة وطلائع الجماهير التي تتفاعل مع مبادئ الأمة وثوابتها وقيمها ومثلها العليا المعبرة عنها؛ تلك الثوابت والقيم التي تهدف إلى تحقيق «الحياة الحرة»، وتستند إلى ثلاث ركائز: الفطرة، والعقل، والوحي.

فطرة الوحدانية التي تحقق الانسجام والتوازن والتكامل والعدل، والعقل الذي تتفاوت أحكامه بتفاوت معطياته، والوحي الذي حسم الموضوع بأن الإنسان حمل مشيئة «الإرادة الحرة»، وعلى هذه الأسس وسعت الحضارة الإسلامية البشر جميعًا باختلاف عقائدهم؛ حيث ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وهذا

بطبيعة الحال في غير ما يعرّض الناس وأموالهم ودماءهم للبغي؛ فتلك هي حماية الشريعة للناس.

ويتوقف نجاح هذه الطلائع على مدى العمل والجهد والكفاح المبذول وسلامته والإخلاص فيه، والمعرفة الكاملة بسنن الله الغلابة، التي لا تحابي حتى النبي المرسل، ولنتذكر جميعًا يوم «أُحُد»؛ حيث أطهر فئة على وجه الأرض بقيادة من أرسله الله رحمة للعالمين، لما خالفت سنة من سنن النصر؛ لتخليهم عن موقعهم الاستراتيجي.. فكان الدرس أليمًا؛ سبعين شهيدًا من كرام الصحابة، ولما تساءلوا: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ جاء الجواب: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].



التغير في الأنفس والمجتمعات
مشروع أمة أم مشروع قائد(*)

كثيرًا ما أقف أمام تلك اللوحة الجليلة التي تحوي رسمًا للقدس والأقصى مكتوبًا عليها: «فتحها عمر، وحررها صلاح الدين.. فمن لها الآن؟»، وأجد نفسي متأملاً ومستغرقًا في تفكير طويل، فباعتبار أن قضية فلسطين وتحرير القدس هي قضية القضايا لكل المسلمين، تموت عليها أجيال وتعيش عليها أجيال، ترنو إلى ماضٍ عزيز وتتطلع إلى مستقبل أكثر عزة.. أصبح التساؤل الذي يملأ وعي كل المسلمين في كل العصور «من لها الآن؟»، يكمل مسيرة عمر وصلاح الدين، وتزداد الآمال تعلقًا بحلم القائد الذي يحمل الراية ويقود الأمة إلى الأقصى فاتحًا ومحررًا، ويقف على المنبر كما وقف ابن عماد الدين بعد انتصار حطين تاليًا الآية الكريمة: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥].

ومع التسليم الكامل بدور القادة والزعماء والأبطال في تاريخ الأمم والشعوب؛ سواء كانوا فاتحين أو محررين أو مصلحين.. إلا أنني لم أستطع منع نفسي من التوقف والنظر إلى الأمر من زاوية أخرى أرى أنها جديرة بالتأمل والدراسة العميقة؛ فقضايا الإصلاح والتحرير والتغيير لا يمكن اختزال حملها الثقيل في شخص فرد، مهما كانت

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٦٢، ١٧ يونيه ٢٠٠٤م.

قدراته القيادية ومواهبه الزعامية والبطولية، وبالتالي فخطأ عظيم في حق الدين والأمة أن تتم تربية الأجيال على هذا الفهم، فينشؤوا على التعلق بحلم القائد البطل الذي يفعل ما يعجز عن فعله الآخرون! فترتهن أشياء كثيرة انتظارًا وتطلعًا ليوم مجيئه.

وأتصور أن هذا الفهم -الذي يكاد يكون بديهيًا عند الكثيرين- يحتاج إلى مراجعة شاملة لمعنى التغيير وقوانينه وسننه الكونية التي خلقها الله سبحانه وتعالى، ودور الأفراد بصفتهم الجماعية في إحداث هذا التغيير والبدايات الأولى في مسار هذا التغيير، وهل هو تغيير في ماديات المجتمعات وقوانينها ونظمها ولوائحها.. وما إلى ذلك، أم هو تغيير في الأنفس بالدرجة الأولى فيشمل الأفكار والمفاهيم والتصورات والثقافات؟

في تصوري واعتقادي أن قضية «التغيير التاريخي» في حياة الأمم والمجتمعات سواء للأسوأ أو للأفضل هي قضية مجتمعية أولاً وثانيًا وثالثًا! وتحدث وتتكون على مستويات عديدة، بمعنى أنه يتم أولاً في «نفوس» الأقوام والأفراد على مستوى الفكرة والسلوك والمفاهيم والاتجاهات، ثم لا يلبث أن ينعكس كل ذلك على المجتمعات على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، إنَّ صعودًا أو انحدارًا.

وإذا علمنا من دروس التاريخ أن الأمم تندثر حين تشعر بفقد رسالتها ودورها في هذه الحياة؛ لتأكد لدينا أن ما نحن فيه الآن من تردٍّ وانحدار ما هو إلا قانون كوني ثابت يطبق في موضعه تمامًا، وسنن الدنيا وقوانينها لا مجال فيها للمحاباة والاستثناء؛ فالأزمة أعمق من أن

تُختزل في غياب قائد ملهم قَرُب مجيئه أم سيطول انتظاره! فمهما كانت قدرات وإمكانات هذا القائد الملهم فما الذي يستطيعه مع أمة ضعيفة مسلوبة الحول والطول؟!

والكارثة الحقيقية أن هذا الفهم له بُعد خطير؛ وهو تعطل الأمة عن الوقوف على حقيقة الأمراض والأزمات الحقيقية التي تنخر في بنيانها من الداخل، ويستحيل تحقيق أي خطوة للأمام قبل تمام شفائها منها؛ سواء في وجود القائد البطل أو في غيابه، وبدلاً من أن يقوموا بالمهمة الكبرى في تحقيق سُنة «تغيير ما بأنفسهم» من جهل وتخلف وسلبية وضعف وانكسار؛ حتى ينطبق عليهم قانون التغيير الكوني «فيأذن الله لهم بالتغيير» والانتقال إلى حياة العلم والنهضة والكرامة والقوة.. تتعطل كل هذه الطاقات وتظل حبيسة ومرتهنة بمجيء القائد الملهم!!

ونضيف إلى ذلك بُعدًا آخر لا يقل خطورة عن الأول؛ وهو ما يتصل بحجم وطبيعة دور القادة والزعماء في حمل المسؤوليات، والقيام بأعباء النهضة والإصلاح؛ والذي كثيرًا ما يضخم ويبالغ فيه، وتاريخنا الحديث ينطق بذلك، ويؤدي في النهاية إلى تلك الديكتاتورية المقيتة والاستبداد والانفراد بالرأي والتخطيط والإعداد والتنفيذ، بل إن الأمر قد لا يسلم من التنكيل بالمخالفين في الرأي! فضلاً عن الإبعاد والإقصاء عن المشاركة في الجهد والعمل، ثم لا يلبث هذا الانفراد في الرأي والعمل أن يتحول إلى فشل وعجز، والذي يتحول بدوره إلى إحباط وانهيار.

وعلى الجانب الآخر نجد الشعوب لا دور لها إلا الانصياع بعد أن منحوا «توكيلاً» للقائد الملهم! سواء كان ذلك نتيجة لبطشه الشديد، أو

تأثرًا بما ترده ماكينة الإعلام الساحقة عن عظمة القائد وتفرده وعبقريته! فينطمس معنى «المسؤولية الجماعية» في وعيهم، وينتهي إلى التواكل الكامل على عظمة القائد، ومهما توالت أمام أعينهم صور الهزائم والتخلف والعجز والفشل فإنها تظل بعيدة عن الحلبة وخارج المعركة!

وسيظل محفورًا في التاريخ ما قاله هذا الأعرابي لأحد عباقرة الحكم والسياسة في التاريخ الإنساني كله: «لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقوّمناك»، فيتهلل الحاكم لأن في الشعب من يقوّمه ويحاسبه إذا أخطأ!!

هذا الفكر الذي كان عليه الحاكم الذي قيلت له هذه العبارة، أو المحكوم الذي قالها.. لم يمر بمراحل تخلّق وتطور طويلة مليئة بالدماء والدمار، كما حدث في بعض المجتمعات والحضارات التي تحمل الآن رسالة الإصلاح السياسي والتغيير الثقافي لمجتمعاتنا، ولنا أن نقارن بين الثقافة التي أنتجت حاكمًا ومحكومًا يدور بينهما الحوار السابق، وثقافة: «شنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»!! وثقافة: «عشرة قرون من الحروب الدينية التافهة»!

وعودة إلى قضية التغيير في الأنفس والمجتمعات، واستدعاء لفترة تاريخية تتشابه مع كثير مما نعيشه الآن؛ وهي الفترة التي سبقت «الانتصار» على الصليبيين في حطين ١١٨٧م -وأود أن أستطرد هنا لأذكر أن تاريخ الحروب الصليبية بحملاتها المتعددة، والتي انتهت بطرد الأوروبيين من الشرق واستعادة القدس، بعد أن أسسوا إمارات توارثوها جيلاً بعد جيل.. هذا التاريخ تعكف عليه مراكز الأبحاث والدراسات في إسرائيل، ويمثل لها معينًا استراتيجيًا هائلاً للتعامل معنا! ولهذا حديث آخر.. أقول: إن هذا النموذج المشرق وتفاصيل التغيير

الذي أحدثه القوم في أنفسهم، والذي سبق ظهور صلاح الدين، وكيف كانت عملية النهوض والخروج من حالة التبلد والاسترخاء إلى المواجهة والانتصار، والذي كانت «حطين» ثمرته الأخيرة.. لوجدنا أن القضية لم تكن قضية قائد مُلْهَم أو زعيم مخلّص بهذا الحجم الذي استقر في وعينا وذاكرتنا التاريخية؛ بل كانت قضية تغيير جذرية وشاملة للمجتمع من داخله بالكامل، تعاضدت وتوحدت فيها النوايا والهمم الصادقة مع الخطط والخطوات الواثقة.

وهنا نقف دارسين ومتأملين -ومتحسرين أيضًا!- للدور التاريخي للحركات الإصلاحية التي اتخذت من الإسلام منهجًا ورسالة وأداة ووسيلة «للتغيير»:

فكانت الحركة الإصلاحية للإمام «أبي حامد الغزالي» وروّاد منهجه؛ فعملوا على صنع جيل جديد من العلماء لا يخشى إلا الله، وحاربوا التدين الشكلي، وأحيوا رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعوا للعدالة الاجتماعية، وقاوموا المادية والسلبية.

وكانت أيضًا الحركة الإصلاحية للشيخ «عبد القادر الجيلاني» وروّاد طريقته، فعملوا على نشر التعليم والتربية والتوعية وصحيح الدين، والارتقاء الروحي والأخلاقي والاجتماعي، ومحاربة الفقر، ومقاومة التيارات التفكيرية المنحرفة.

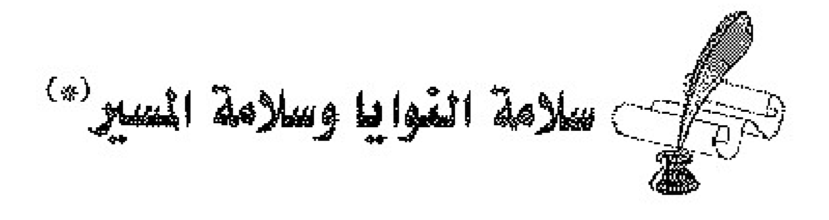
فبدأت تسري في الأمة «روح جديدة»، وبدأت الكفاءات والقدرات الدفينة في الظهور، وبدأ «السعي الجماعي» لتحمل المسؤولية وحمل الأمانة، والذي أسفر عن قيام الدولة الزنكية التي اعتبرت أن

الفرد هو الركيزة التي تقوم عليها عملية التغيير والإصلاح، والتي وإن بدت صعبة إلا أنها ليست مستحيلة؛ بل قريبة الإمكان والتحقق، فاعتمدت نهجًا متكاملاً يقوم على التربية والتعليم للأجيال الناشئة الصاعدة، والتوجيه والإصلاح لعموم الشعب والجماهير، وتعبئة كل قوى الأمة للمواجهة ودفع الخطر، فكانت الاستجابة على قدر التحدي وأقوى، وكان طريقًا طويلاً وشاقًا من الإعداد والنهوض والإصلاح الداخلي، سار فيه عماد الدين ونور الدين آل زنكي متعاضدين متعاونين مع الحركات الإصلاحية في مجتمعاتهم.

ولأن الإسلام في قلوب المصريين يلتقي دائمًا بأي انطلاقة إسلامية يمكن أن تعطي الإسلام عنفوانًا وقوة على المستوى السياسي والاستراتيجي، وهذه حقيقة تاريخية يعتبرها الغرب من الحقائق الاستراتيجية الخطيرة التي تحكم موازين الأمور في الشرق حتى يومنا هذا، فما كان منهم إلا أن سارعوا بوضع أيديهم في يديْ أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وبعد أن توهَّم البعض أن هذه هي نهاية التاريخ، وأن الصليبيين قدر محتوم لا قدرة على مواجهته ولا سبيل إلى الخلاص منه.. بدأ التاريخ بقوة المبادئ والقيم وإرادة التغيير الصُلبة، وصدْق العهد بين الحاكم والأمة بدأ يتحرك للإمام، وخاضت الأمة كلها «عملية التغيير»؛ فكان النصر وكانت الكرامة وكان أن عادت القدس، لم يحررها قائد فرد بإلهامات ومعجزات، إنما حررتها «أمة» بأكملها توحدت على الولاء للفكرة والرسالة،

وتناصرت فيها أسباب المنعة والقوة النفسية والمادية وفق قانون: ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ [الأنفال:٦٠]، وتلاحم فيها القادة والعلماء مع المصلحين والمفكرين، والفلاسفة مع الناس العاديين، فكانت النتيجة الطبيعية لجميع مظاهر النهوض هذه هي النصر المبين، وتحرير الأرض والإرادة، والوجود الكريم في الحياة بين الأمم، وحُقّ لأمة تلاقت فيها جهود وجهاد كل هؤلاء أن تنتصر، وأن تنال ما تريد.

***



سلامة النوايا وسلامة المسير(*)

سُئل الفضيل بن عياض -رحمه الله- عن العمل الصالح؟ فقال: «أخلصه وأصوبه»؛ وأخلص العمل هو ما لا يُبتغى به شيء في هذه الدنيا سوى رضا الله سبحانه وتعالى، وأصوبه هو ما كان موافقًا لآيات الله سبحانه وتعالى الشرعية والكونية.

فالعبادة لا قيمة لها على الإطلاق إلا بتوافر هذين الشرطين؛ فالعابد الجاهل كثير الإفساد قليل الإصلاح! وروي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قوله: «كم من مريد للخير لا يصيبه لأنه يريده بطريق الخطأ!»، وسلم من قال: إن الجهل هو تلك المصيبة التي لا يؤجر عليها صاحبها!! والعياذ بالله.

وفي أمور الدنيا المادية؛ كالزراعة والصناعة والتجارة والعلوم.. وما إلى ذلك، لا يتحقق تقدم وارتقاء إلا بتوافر هذين الشرطين: سلامة القصد والنية، وسلامة الخطط والخطوات، أو بتعبير الفضيل بن عياض «الأخلص» و«الأصوب».

وحقيقة الأمر أن العلاقة تكاد تكون شرطية؛ لأنه ببساطة شديدة حين تتواجد النية والإخلاص يتواجد الحب للعمل، وتتحقق نصيحة: «أحبب ما تعمل، واعمل ما تحب»، والتي هي ضرورة من ضرورات الإتقان والدقة و«ضبط الجودة».

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٣٨، ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٣م.

أما سلامة الخطط والخطوات؛ فهي التي نعرفها بسنن الله تعالى في النفس والآفاق، وهي التي تركها لنا الله سبحانه لنبحث عنها ونكتشفها، خلافًا للعبادات التي بيَّنها سبحانه، والتي هي مسخرة من الله لخدمة الإنسان ونفعه؛ ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:٥٤].

وليس هنالك أي علاقة بين الإيمان والنجاح في معرفة قوانين الكون واكتشافها، أو بين الكفر والفشل في تحقيق ذلك؛ لأن الأمر هنا قائم علي تحقيق الشرطين «الأخلص» و«الأصوب» .

هكذا نجد أن ما قاله الفضيل -رحمه الله- يقدم رؤية شديدة العمق للإصلاح والنهوض بالإنسان؛ من حيث كونه إنسانًا، ومن حيث كونه جزءًا من مجتمع، ومن حيث كونه يحيا في الدنيا ويسعى للآخرة.

ويدفعنا الحديث في هذا المعنى إلى طرح سؤال مهم: هل يمكن أن يُخلص الإنسان لمبدأ وهو غير مقتنع بنفعه وصلاحه؟

والحقيقة أنني لا أتصور ذلك.

وبالمصطلحات التربوية الحديثة نجد أنفسنا أمام نظرية «الإرادة والقدرة»؛ فالإنسان يبدأ من القدرة علي الفهم والاقتناع، ثم تتعلق إرادته بما اقتنع به وفهمه، وتصبح تلك الإرادة محفزة ودافعة له لتحصيل مزيد من القدرة.

تأملوا قول الخالق العظيم: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]؛ فالمشكلة لم تكن في القدرة، ولكنها في الإرادة، والتي هي الابنة الشرعية للفهم والاقتناع.

ولعل تلك الرؤية هي التي جعلت المربي الجليل الأستاذ «البنا» يؤكد هذا الركن الذي جعله أول ركن من أركان البيعة؛ وهو ركن «الفهم»، فكل إنسان أعطي القدرة على الفهم بدرجة أو بأخرى، فإذا علم الصواب والخير تحركت إرادته إليه، وعندها يستطيع أن يوظف ما يملك من قدرات واستطاعة، وكما يقولون: «إذا أردت فقد قدرت»!

وعودًا على بدء، فإننا نقرر أن سلامة النية إن لم تترافق وتتواكب مع سلامة السير، أو بتعبير الفضيل بن عياض: إن لم يترافق الأخلص مع الأصوب.. فإننا نجد أنفسنا أمام نتيجة من اثنتين: إما أن يتم التحول إلى طريق العنف والغلو والتشدد على النفس والآخرين، وإما أن يُدفن هذا الإخلاص في بئر عميقة من الضمور والتآكل، تحت لافتة: «ليس بالإمكان أبدع مما كان»!

والحالة الأولى عندنا لها نماذج في الماضي البعيد والماضي القريب، والحالة الثانية تمثلها للأسف أكثرية المسلمين في العالم الإسلامي، وتزداد المشكلة تعقيدًا حين يذهب بعض المصلحين إلى أن المشكلة هي نقص الإخلاص وسلامة النية، هكذا ببساطة شديدة، ويُنظِّرون النظريات، ويقترحون الحلول بناء على ذلك؛ فتكون النتيجة مزيدًا من التوتر والاختناق الداخلي في نفس المسلم، وبخاصة الشباب الذي لا ينقصه الإخلاص ولا تنقصه سلامة النية.

والمخرَج من هذه المعضلة هو أن يترافق هذا مع ذاك، سلامة النية

والإخلاص، مع سلامة السير وفق الصواب من الخطط والخطوات؛ فتتحرر نفس المسلم من هذا الاختناق، ويعلم أنه يسير على هدى ونور، ويتيقن يقين المؤمنين الصادقين أن أحلام اليوم لا تلبث إلا أن تكون حقائق الغد.

***

إلى المهمومين بمحنة أمتنا

عن إسلامية الثقافة وأشياء أخرى(*)

بإطلالة سريعة على مشروعات النهضة والإصلاح التي كانت على مدار القرنين الماضيين في المنطقة العربية، تجد بوضوح شديد أن مشروع النهضة القائم على أسس إسلامية هو أقوى وأعمق من كل مشروعات الإصلاح التي قامت في هذه الفترة؛ لسبب بسيط للغاية؛ وهو أنه استند على «هوية» الأمة والمكونات الأساسية لذاتيتها، ولهذا حديث آخر.

بدأ مشروع الإصلاح الإسلامي على يد «جمال الدين الأفغاني» أواخر القرن التاسع عشر؛ بهدف استنهاض العقل المسلم والعربي، وتحريره من موروثات سيئة سيطرت عليه من قرون سابقة، طال فيها الركود والجمود، هادفًا بهذا الاستنهاض إلى مواجهة الهجمة الحضارية الغربية التي عتت وبغت وتكبرت على الإنسانية كلها، مسلمين وغير مسلمين، عربًا وغير عرب.

ولخَّص الأفغاني مقصده في هذا كله إلى:

- إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شؤونها، وإلحاق الأمة بالأمم العزيزة، وإلحاق الدولة بالدول القوية، وصال الأفغاني وجال في مجال الإصلاح بكل ما آتاه الله من قدرة

(*) جريدة «العربي»، العدد: ٩٢٨، ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٤م.

واستطاعة، حتى توفاه الله سنة ١٨٩٧م، واستحق عن حق لقب «موقظ الشرق».

وضمن المشروع نفسه وقف «محمد عبده» فارسًا قويًا على ثغرة الجانب الفكري فيه، بالدعوة إلى أمرين شديدي الأهمية: تحرير الفكر من قيد التقليد، وإصلاح أساليب اللغة العربية وتطوير مفرداتها، وانضم إليه في هذا الجانب تلميذه القريب «رشيد رضا»، وعلى امتداد ما يقرب من أربعين عامًا كانت «المنار» معبرة وناطقة بقوة عن هذا المشروع؛ أسسه ومعالمه وملامحه الفكرية والدعوية، مواجهة بكل قوة وتحدٍّ من يبشرون بأن النهضة والخلاص لن يتحقق إلا عبر تبني المشروع الغربي الحضاري؛ بخيره وشره، بصوابه وخطئه! تلك الأفكار التي أحدثت بالفعل «هزة» ملحوظة في الوعي العام للأمة، وعلى قدر ما واجهت الأمة من تحديات ومخاطر عبر تاريخها الطويل، إلا أن الأمر كان شديدًا هذه المرة؛ لأن هذه المرة كانت موجهة «للعقل»، والمهاجمون هُم منَّا، لونهم لوننا، وأسماؤهم أسماؤنا، يتحركون بيننا، وينطقون بلساننا!

على أنه لم تكن هذه نهاية المسألة؛ فقد كانت استجابة أبناء الأمة النجباء الأمناء لهذا التحدي سريعة وقوية وفاعلة ومتصدية، ولأن الإسلام على مرِّ التاريخ الطويل للأمة كان هو حصنها المنيع وملاذها الآمن، حين تَدْلَهِم عليها الخطوب، وتتكاثر عليها المحن، وتشعر بتهديد حقيقي لوجودها، فقد كان كذلك أيضًا في هذه المحنة، وكان هو «كلمة السر» -كما ذكر أحد علمائنا- التي تتنادى بها الأمة، وتتداعى إليها قلوب وعقول النخبة والجماهير في آنٍ واحد.

فكان تأسيس جمعية «الشبان المسلمين» على أيدي صفوة من علماء الإسلام بالقاهرة سنة ١٩٢٧م، وفي العام الذي يليه ظهر أكبر تطور نوعي وكمي في تاريخ مشروع الإصلاح، عندما أدرك التلميذ النجيب للأفغاني وعبده ورضا «حسن البنا» أن تصاعد التحدي، وحجم الاختراق الذي حدث في الوعي العام للأمة؛ يتطلب الانتقال بهذا المشروع من إطار النخبة والعلماء إلى الجماهير وعموم الناس، وسعى بكل ما آتاه الله من قدرة واستطاعة إلى تكوين جسم لهذه النخبة، وآتاه الله من التوفيق في ذلك ما آتاه، وكانت تلك أهم خطوة في هذا المشروع.

ودارت دورة الأيام، وتحركت عجلة التاريخ، ووقعت أخطاء تجاوزها الزمن، وغابت أشخاص أفضت إلى ما قدمت من عمل، وأجرها على الله، وبرزت أشخاص توقظ ما كان، وتعاظم -خطأً- ما لا ينبغي أن يتعاظم، وتضاءل -خطأً- ما لا ينبغي أن يتضاءل، وفي ثنايا ذلك ظهرت تيارات فكرية تتخذ من الإسلام أساسًا لها، واختلفت بدرجة واضحة في مضمونها ومكونها الفكري عما يمثله مشروع «الإصلاح الإسلامي» الذي تمتد جذوره إلى قرنين من الزمان مضيا.

فظهرت تيارات تخاطب الناس بالترهيب والذعر وما ينتظرهم يوم القيامة من عذاب مهين، متغافلين عما يودعه الإسلام في قلوب المسلمين من رضًا وسكينة وقُرب من الله وأنس بمعرفته.

وظهرت تيارات تحضُّ على التشدد والتوسع في إيجاب الموجبات والتضييق في إباحة المباحات، متصورين خطأً أنهم وصاة على الدين

والناس، ونسوا أن الوصول في التشديد إلى الاقتراب من تحريم الحلال لا يقل إثمًا عن الوصول إلى تحليل الحرام، والعياذ بالله! وأن منهج الإسلام وشريعته قاما على التيسير والتخفيف ورفع الحرج والمشقة.

وظهرت تيارات اختلطت لديها مراتب الواجبات في الدين، لا يفرقون بين أساسيات العقيدة التي لا يكتمل بغيرها الإيمان، وبين أمور فرعية تتصل من بعيد بهذه الأساسيات، لا يفرقون في نظرتهم للأمور بين المفروض والمندوب والمستحب، ولا يعرفون ما هو المجمع عليه وما هو المختَلف حوله، مهملين دور العقل وأهمية العلم في بناء المفهوم والتصور الإسلامي.

وظهرت تيارات ترفض التعايش مع الأنظمة والمجتمعات القائمة، وتشن عليها حربًا لا هوادة فيها، وتخلع على أصحابها صفة الجاهلية والخروج على الإسلام؛ لأنها تحكم بغير ما أنزل الله! وتقدم أبناءها طعمة للأنظمة المستبدة، ونسوا أنهم بذلك لا يقيمون دينًا ولا يبقون دنيا.

وعلى الجانب الآخر ظهرت تيارات فكرية وثقافية ألزمت نفسها بما ألزم الغرب به نفسه في العلاقة بالدين.

ويبقى «المشروع الإصلاحي» الذي يستلهم الدين ويستند إليه «مرجعية» و«هوية» قائمًا وقويًا، وإن ازدادت معالمه وضوحًا وتحديدًا، وازدادت معرفته بالواقع سعة وفهمًا، وقدَّم إجابات واضحة ومحددة وقاطعة على أسئلة كثيرة، استقبلها عدد قليل من إخواننا الليبراليين والقوميين بفهم وقبول، وأحدثت نوعًا من الارتياح لدى كثير من

المثقفين قليلي الحظ من الثقافة الإسلامية بوجهها الديني أو بوجهها الحضاري والمعرفي.

إلا أنه في الإجمال العام تم التعامل معها بتجاهل خبيث وإهمال مريب، كأنه يتحتم علينا أن نظل طوال عمرنا نستقبل أسئلة عن «طالبان» و«القاعدة» والعنف المسلح والتكفير والمرأة والأقليات والديمقراطية! وهذا مما يدعو للأسف الشديد حقيقة.

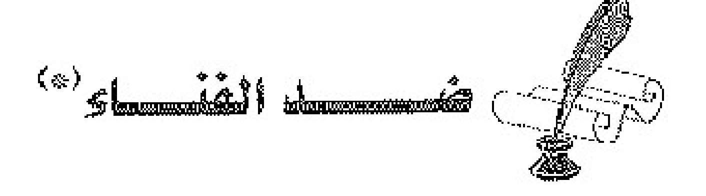
وكانت «العربي» قد نشرت لي ما أسماه بعض المتابعين بـ«المفهوم الإسلامي للإصلاح»، وقد تكون هناك مفاهيم أخرى للإصلاح، ولا يعني ذلك عند أهل العقل وسلامة الفهم أنها مفاهيم كافرة والعياذ بالله! في إيجاز شديد أُذكّر بها:

- لا وجود على الإطلاق للعنف والاحتجاج المسلح في وقت الدولة الوطنية، وما سجله التاريخ كان وقت الاحتلال، وصاحبه ما صاحبه من بعض الانحراف.
- المواطنة هي أساس الوجود في المجتمع، والنظام الديمقراطي النيابي هو أكثر النظم فاعلية للحفاظ على الحرية وعلى قوة مؤسسات المجتمع، وعلى منع الاستئثار بالسلطة.
- ليس هناك إسلام للمرأة وإسلام للرجل، والاثنان مطالبان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ الذي هو: تعبئة الناس للتصحيح المستمر لأوضاعهم.
- العدل الكامل في توزيع الثروة والدخول، وتنمية القدرات، وتهيئة مناخ التشغيل الكامل، وتحقيق تأمين اجتماعي فعّال، من

خلال حكومة نشطة ذات قدرات فعالة، بالتعاون مع قطاع خاص وأهلي يتمتع بالحيوية والإحساس الوافر بالمسؤولية الاجتماعية.

- يجب أن يتصل التعليم بمقتضيات الحاضر والمستقبل، ويقوم على تنمية القدرات لا حشد المعلومات، ويزود النشأ بالقدرة على رجاحة الحكم، وتربيتهم على معنى الاختلاف والتعدد.

***



ضد الفناء (*)

«عاش فقيرًا ومات فقيرًا، وكان جاهه في أولئك الذين التفوا حول دعوته، اقتفى خطوات عمر وعلي، وصارع في مثل بيئة الحسين، ومات مثلهم شهيدًا»!

كانت هذه تغطية أحد المراسلين الأجانب لخبر استشهاد الأستاذ «البنا» في ١٢/ ٢/ ١٩٤٩م، الرابع عشر من ربيع الثاني ١٣٦٧هـ.

في القانون الأساسي لجماعة «الإخوان» بباب «الغاية والوسيلة» مادة (١) تقول: «غايتنا تكوين جيل جديد يفهم الإسلام فهمًا صحيحًا، ويعمل به، ويرد قواعد النهضة إليه».

ويقول الأستاذ «البنا» في أحد حواراته: «دعوة الإخوان تدعو إلى المساهمة في كل أعمال الخير وفي كل نواحيه، وتتجاوز ذلك إلى العمل على تكوين جماعة مؤمنة، تربطها الفكرة الإسلامية، تجاهد ما وسعها الجهد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وتركيز الحياة الاجتماعية والمدنية في الشعوب الإسلامية علي أساس أحكامه وأصوله».

كان «جمال الدين الأفغاني» -رحمه الله- يريد الإصلاح عن طريق الحكم، ويرى أن الفساد فساد الرؤوس، وكان الإمام «محمد عبده» -رحمه الله- يرى أن الإصلاح لا يكون إلا بالتربية ولعن السياسة

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٩٧، ٢٤ فبراير ٢٠٠٥م.

والساسة! وإلى مثل ذلك ذهب الشيخ «رشيد رضا» رحمه الله، فجاء «حسن البنا» ودمج كل ذلك في سبيكة عبقرية، جمع حولها صفوة المثقفين، وجموع البسطاء في الحارات والنجوع إلى طريق واحد وهدف واحد! كان يردد دائمًا: «إن الخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببًا للتفرقة في الدين، ولا يؤدي أبدًا إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون في الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجرَّ ذلك إلى الخلاف المذموم والتعصب».

في معرض حديث لأحد أساتذة التربية العمالقة في «مصر»، الدكتور «صالح عبد العزيز» عميد تربية «الإسكندرية»، قال: «إن فلسفة التربية لأي مجتمع لابد أن تتوافق مع أهداف المجتمع وغاياته، من أجل ذلك اختلفت فلسفات التربية في العالم من مجتمع لمجتمع، بل تختلف أحيانًا من جيل إلى جيل، ووطننا «مصر» يحتاج للإنسان الذي يؤمن بأن له شخصية محددة المعالم، يحتاج إلى وحدة ثقافية تربط الناس وتحملهم على مفاهيم محددة، نريد يقظة اقتصادية، نريد.. ونريد.. ونريد.. ونحن كرجال تربية أكاديميين لن نستطيع ذلك، شيء واحد يلمع في الأفق، إذا أمكن الوصول إلى العلاج الصحيح وتحديد المعالم المطلوبة للمواطن الصالح، تلك هي تربية «الإخوان المسلمين» التي حددها «حسن البنا»، وربى عليها جيله».. ثم يستطرد قائلاً: «لا أدري كيف ربى «حسن البنا» رجاله وشبابه؟! لقد كانت تربية ستغير عجلة التاريخ؛ ولذلك اُغتيل حسن البنا»!

كان الصراع بين «البنا» والاستعمار وعملائه صراعًا من أجل: إما إسلام يوجد مع احتلال يزول وتزول كل آثاره، وإما لا إسلام وتبقى البلاد

بقرة حلوبًا للاستعمار وعملائه، القصة كلها ببساطة شديدة قصة إسلام يُنتج أمة متحررة قوية، تستند إلى حضارة عظيمة، لها رايتها المرفوعة.

هذا ما قام «البنا» ينادي به في قوة وبساطة ووضوح، في وقت كان أمل التوحد والترابط على الفكرة الإسلامية كلامًا يُقال، وأملاً يظهر ثم لا يلبث أن يختفي في خضم الفواجع التي حاصرت الأمة الإسلامية في مطلع القرن السابق، ثم جاء إلغاء الخلافة فزاد الطين بلة! فعلى الرغم من ضعفها واستبدادها إلا أنها كانت تمثل رابطًا جامعًا للشعوب الإسلامية والعربية.

وسط كل هذه الظلمات ظهر «حسن البنا»؛ ليشع بنور من الله في فترة زمنية قصيرة (خمسة وعشرين عامًا) إشعاعات وهاجة نفاذة، غيرت مسار الحياة السياسية والاجتماعية في «مصر» والعالم العربي حتى الآن، التجربة لم تكتمل بعد، ولا يزال هناك الكثير والكثير لتظهر قوة هذه الفكرة وعظمتها.

كان -رحمه الله- ضد الاغتيالات والقلاقل التي كان قد طالبه بها البعض في وقت من الأوقات، ولكنه ﷺ كان حريصًا حرصًا بالغًا على حقن الدماء، وعدم الدفع بالأمور في اتجاه الفتن والصراعات، وكان يردُّ على المطالبين بذلك: «أتريدون أن تشعلوها حربًا أهلية كالتي حدثت في اليونان؟! (وكانت وقتها) لا وألف لا.. إنما نصبر ونحتسب ونحقن الدماء»!

يحكي الأستاذ «مرتضى المراغي» في مذكراته التي صدرت في منتصف الثمانينيات، وكان مديرًا للأمن العام في وزارة النقراشي باشا،

فيقول: «إن الأستاذ «البنا» طلب مقابلته في شتاء ١٩٤٧م، وقابله في بيت أسرته في حلوان، وطلب منه إرسال رسالة إلى الملك من أنه يتخوف بشدة من انفلات بعض الشباب إلى العنف، وأن «الإخوان» لا يريدون به إلا كل خير، ولكن النقراشي باشا منع مدير الأمن العام من توصيل هذه الرسالة إلى الملك، على الرغم من اقتناعه التام بما قاله له الأستاذ «البنا»، ولكن للأسف كانت الأحقاد متمكنة في قلوب بعض الساسة والحزبيين تجاه الرجل؛ مما أعماهم عن رؤية مصالح الأوطان والشعوب، وهو ما حدث بالفعل».

يحكي لنا إخواننا الكبار الذين رافقوه وصاحبوه أنه -رحمه الله وأرضاه- كان يتكلم العربية البسيطة الواضحة بقدرة فائقة، مع عفة لسان وتلطف وحياء؛ فلا يخوض في سيرة ولا يذكر شخصًا بسوء معارضًا أو خصمًا، إنما ينتقد الأعمال الباطلة بطرق موضوعية، يُشخِّص فيها الداء، ويصف فيها العلاج، ويصحح الخطأ، ويترفق في رد الشبهة، ويلتمس الأعذار للضعف البشري، ويقول: «التدرج في الخطوات من سنن الدعوات».

كان ينصح إخوانه أو أبناءه بأن يكون لكل واحد منهم ساعة أو بعض ساعة في الصباح والمساء يخلو فيها إلى نفسه، يراقبها ويحاسبها، ويدعو ويستغفر ويتذكر فيها إخوانه وأحبابه، فتصفو القلوب وتطمئن النفوس وتتوثق الروابط وتتنزل الرحمات.

إنني على أتم يقين من أن أي حركة إصلاحية تظهر في الشرق أو ستظهر بعد ذلك يمكن إرجاعها إلى المقاييس التي وضعها «حسن البنا».

كانت هذه الكلمات التي أنهى بها المراسل الأجنبي خبر استشهاد الإمام، وهو كلام صحيح تمامًا يؤكده قول العلامة الفقيه المستشار «طارق البشري» بقوله: «إنه ما من فكرة إسلامية أو حركة إسلامية إلا وفيها شعاع من فكر حسن البنا»!

رحم الله الأستاذ «البنا»، وتقبله في الشهداء مع النبيين والصديقين ممن رضي الله عنهم وأرضاهم، وجمعنا بهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

***



مجدِّدون لا مبدِّدون(*)

خلال حركة الحياة المستمرة المتدفقة تتبدل أشياء بأشياء وبشر ببشر وأحوال بأحوال، ووفق كل ذلك تنشأ قضايا جديدة وموضوعات جديدة ومعاملات جديدة، ويحتار الناس في أمرهم بين القديم الذي تجاوزه الزمن، والجديد الذي يُطرح بقوة فارضًا نفسه على الزمن والناس، وتظهر الحاجة الملحّة إلى التجديد في التفكير والوسائل والأدوات، ويجتهد أهل الرأي والعقل في فهم الواقع ومكوناته وفهم النص ومدلولاته.

واليقين أن «الاجتهاد» أصل من أصول الدين؛ لأن به تتحقق صلاحيته لكل زمان ومكان وقدرته على التعامل مع المستجدات والمتغيرات في حياة الناس، والتاريخ الإسلامي حافل بأشكال الاجتهاد المتعددة منذ عهد رسول الله ﷺ، ومشهورة هي رواية صلاة العصر في بني قريظة، وحديثه ﷺ مع معاذ ﷺ حين أرسله إلى اليمن، وفي العهد الراشدي اجتهد الصحابة وواجهوا كل مشاكل الحياة التي لم يكونوا يعرفونها في المجتمعات القديمة، ووجدوا لها حلولاً وتوافقًا مع الدين؛ سواء بشكل مباشر في التعامل مع النصوص، أو من خلال الهدي العام للدين، وهذه نقطة مهمة يشعر بها من فقّهه الله في الدين؛ تأكيدًا لقاعدة: «حيثما وُجدت المصلحة فثمّ شرع الله».

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٧٧، ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٤م.

والحقيقة أن اجتهاد الصحابة كان نموذجًا للفقه بكل ما تحمله الكلمة من معاني التمام والكمال؛ سواء في معرفتهم بالواقع والناس وتفاصيل كل ذلك، أو معرفتهم بالشريعة وأحكامها وميزان تطبيق هذه الأحكام، وكتب السيرة مليئة بمواقف رائعة اجتهد فيها الصحابة الكبار، تتميز بسعة الأفق والواقعية والتزام دقيق بالأصول.

وامتد النهج نفسه على امتداد التاريخ العظيم للحضارة الإسلامية؛ فتكونت مدارس فقهية تستوعب كل جديد وتوافقه مع الشرع، ونما الفقه، وكثرت مسائله الواقعة والمتوقعة كما يقولون، واتسعت الدولة الإسلامية جغرافيًا وعرقيًا، وعرف العلماء ذلك العلم غير المسبوق في تاريخ المعارف الإنسانية؛ وهو علم «أصول الفقه»، والذي تحقق به الضبط بين النقل والعقل، وتتابع التاريخ في سيره حتى كانت الدولة العثمانية، والتي تميز عهدها بقلة الحركة الفكرية بوجه عام، وركزت جهودها على التوسع العسكري وترسيخ هيبتها كدولة عظمى.

ودالت الأيام، وبدأ الاضمحلال يظهر بوضوح في العالم الإسلامي تحت القيادة العثمانية، في الوقت الذي كانت فيه أوربا تتهيأ لقيادة العالم عسكريًا وعلميًا وحضاريًا، واستشعر النابهون من أبناء الأمة الخطر، وبدا أن كثيرًا من الأمور والمسائل تحتاج إلى مراجعة شاملة، وبدأت حركة التجديد والاجتهاد في القرن التاسع عشر، بدأها «جمال الدين الأفغاني» بالعموميات، وكانت حركته في الأفق السياسي أكثر منها في الأفق الفقهي.

ثم ما لبث تلميذه الشيخ «محمد عبده» يضبط ويحدد، وبحكم دراسته الأزهرية العميقة كان عطاؤه التجديدي في الفقه قفزة كبيرة في

الاجتهاد، وإن أُخذت عليه بعض المآخذ في تأويل النصوص، والعبرة بالنيات، والمصيب له أجران والمخطئ له أجر اجتهاده.

ثم تبعه تلميذه النجيب «رشيد رضا»، والذي كان أكثر التزامًا وضبطًا في آرائه واجتهاداته من أستاذه، بما كان له من واسع الاطلاع على إنتاج المدرسة السلفية؛ «ابن تيمية» و«ابن القيم»، وكانت مجلة «المنار» التي أشرف على إصدارها ثورة ساحقة على الجمود والتقليد والنمطية وضيق الأفق، واقترب كثيرًا من الواقع والناس، وخلال ثلث قرن أنتج كمًّا كبيرًا من الدراسات الإصلاحية والرؤى التجديدية، التي سرعان ما انتشرت في العالم الإسلامي ولاقت قبولاً واسعًا.

وتبعه تلميذه وأقرب أصحابه إليه الإمام «حسن البنا»، والذي تمثلت إضافته الضخمة لكل هذه الجهود الفكرية والفقهية بالنزول بها إلى القرية والنجع والشارع والحارة؛ فتكونت أكبر حركة إصلاحية في الشرق، اتخذت من الإسلام منهجًا ووسيلة وغاية، وأضحت شجرة وارفة امتدت فروعها في كل الدنيا تقريبًا، «فبارك الله فيمن وضعوا غرسها، وسامح من تعجل ثمرها»، كما قال الشيخ الشعراوي، عليهم جميعًا رحمة الله ومغفرته.

ومما لا شك فيه أن الشيوخ السابقين كانوا يقرؤون الواقع بعين زمانهم، فصاغوا من خلال هذه القراءة صياغات عظيمة في الاجتهاد والتجديد، الاجتهاد في الجانب الفكري والعلمي للشريعة وأحكامها، والتجديد في الجانب العملي الذي يتعلق بإقامة الدين في الدنيا وبين الناس على النحو الذي يتحقق به صلاح الاثنين، والحقيقة أننا أحوج ما نكون إلى ذلك؛ نظرًا للتطور الرهيب للمجتمعات على كل المستويات تقريبًا، وما أحدثته الثورات العلمية المتتالية من تغيُّر كبير في

الدنيا، وما تبع ذلك من تأثير على كل شيء تقريبًا؛ من اقتصاد ومعاملات إلى علاقات دولية، ومن أساليب تربية إلى مناهج تعليم.

هذا التجديد الذي نراه ضرورة يجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، يجمع بين الانفتاح على الدنيا والثبات على الأسس، يجمع بين التشديد في التمسك بالأصول التي عرّفها العلماء بـ«القطعيات» وبين التيسير في الفروع والمرونة في الوسائل والأدوات.. كل هذا قد يقوم به فرد «مجددًا على رأس قرن»، وقد تقوم به جماعة يكون منها العلماء والساسة والمربون والمفكرون، وقد يكونون في بلد واحد أو بلدان متعددة، وقد تتعدد أشكال وجودهم وحركتهم، وبالتالي نشاطهم وأعمالهم وصور التجديد والاجتهاد التي يقدمونها، وأميل كثيرًا إلى الرأي الثاني؛ أي الابتعاد عن ربط فكرة بفرد واحد، يجعل الناس يعيشون على أمل ظهوره، وكل ما عليهم هو انتظاره!

وأود أن أشير إلى نقطة مهمة للغاية ينبغي أن تكون شديدة الوضوح، وهي أن التجديد لا يعني الهدم والتبديد، التجديد يعني الإبقاء على الطابع الأصيل والخصائص المميزة والأسس الثابتة؛ كالقصر المنيف الشامخ، قد تصيب جدرانه بعض الشروخ فتصلح وترمم، وقد يحتاج إلى توصيلات هنا أو هناك، وقد تغير بعض أبوابه ونوافذه بغرض مواكبته للحاضر وتهيئته للمستقبل كما كان عند بدايته وظهوره أول مرة بين الناس، أما هدمه وإقامة بناء آخر فهذا ليس تجديدًا في شيء، إنما هو تبديد وتضييع! وهذا ما نؤكده دومًا؛ أن الدعوة إلى التجديد لا تعني أبدًا التبديد، ولنتذكر كلمة «شكيب أرسلان» بهذا الصدد: «إنما يضيع الدين بين جامد وجاحد؛ ذلك ينفّر الناسَ منه بجموده، وهذا يضلُّهم عنه بجحوده»!

مكمن قوتنا(*)

لا جدال حول أن واقع الأمة العربية والإسلامية اليوم ما هو إلا نتيجة وأثر للاستعمار الغربي من بداية النصف الثاني للقرن التاسع عشر، الذي طغى وبغى وتجبر واستكبر على أمتنا ما وسعه ذلك وأمكنه، احتلالاً وإفقارًا واستنزافًا ونهبًا! وكانت الأداة الأساسية لهذا الاستعمار والتي سبقت أداة الحرب والقتال هي استئصال الإسلام الحق من قلوب المسلمين وعقولهم، ومن ثم من واقعهم وحياتهم، والعمل بكل الوسائل والطرق على ألا يكون للإسلام حضور قوي في وعي الأمة، وللأسف الشديد نجح في ذلك إلى حد كبير، ورغم الجهود الهائلة التي بذلها المصلحون والثائرون الذين أدركوا هذه الحقيقة كاملة كانت أو مجتزئة، إلا أن الواقع لم يتم تنظيفه من هذه الآثار كما ينبغي؛ سواء على المستوى السياسي أو الثقافي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، بل بعامل طول الوقت وخلخلة الواقع من تحت أقدامنا ازدادت هذه الآثار سوءًا وتضاعفت، فأسفرت عن واقع أشد سوءًا مما كان قبل رحيل هذا الاستعمار في النصف الأول من القرن الماضي.

وكما أدرك هذا الاستعمار مكمن القوة فينا، وعمل على إضعافه، فليس أقل من أن ندرك نحن موقع القوة فينا ونعمل على بعثه

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٩٣، ٢٧ يناير ٢٠٠٥م.

والاستقواء به، وأن يكون سندًا وظهيرًا لنا؛ وهو الإسلام؛ الإسلام العقيدة بأن تكون «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» تصديقًا عمليًا للشهادة بها، والإسلام الفكر بتوثيق العُرى والروابط بين النص والواقع؛ فهمًا واجتهادًا، والإسلام السلوك بأن نكون ما استطعنا قرآنًا متحركًا كما وصفت الصِّدِّيقة بنت الصديق رسولَ الله ﷺ.

نعلم يقينًا من تجربة التاريخ القريب وبالرصد الحالي أن هنالك قوى معادية لهذا النهج عداءً شديدًا، ترصد وتراقب وترتب وتفعل، ونعلم يقينًا أن المشروع الاستعماري الغربي ما زال موجودًا، وما إسرائيل إلا أداته القوية في هذا الوجود، صنعها وأوجدها من وقت قرار الرحيل، وكل من يعي التاريخ ويفهمه يصل إلى هذه الحقيقة بسهولة، ورجوع سريع إلى كتابات العلامة الدكتور «عبد الوهاب المسيري» والمرحوم الدكتور «جمال حمدان» والمرحوم الدكتور «حامد ربيع».. يتبين لنا سلامة هذا التشخيص ودقته، ويجب علينا أن ننبه أنفسنا وشعوبنا وحكامنا إلى أن هذه هي حقيقة الحقائق التي يجب أن تكون دستورًا في تعاملنا مع الغرب ومشروعه الاستعماري، الذي تمثل إسرائيل فيه الرافعة القوية! وتحديد المواقف والضبط المحكم لتعريف الأشياء من حولنا من الأوليات الاستراتيجية لأي أمة تريد لنفسها ولأبنائها البقاء الكريم في الحياة.

وعِلْمُنا بذلك لا يتطرق إليه أدنى شك في أن الله ينصر من ينصره ويزيد من يشكره، وأن الله ﴿خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:]، وأنه سبحانه متمٌّ نوره ولو كره الكارهون المحبطون اليائسون المفزوعون.

هاتان النقطتان يجب أن نفهمهما ونحسن إفهامهما للأجيال من بعدنا:

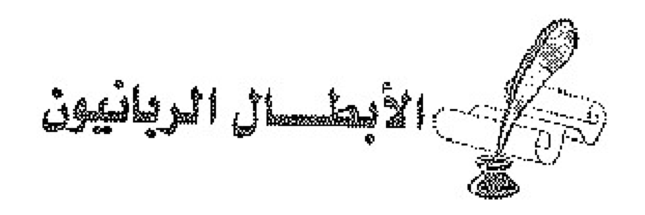
الأولى: أن مكمن قوتنا هو «إسلامنا»؛ عقيدة وفكرًا وسلوكًا، وأننا يجب أن نعمل كل جهد ممكن لتعميق هذا الدين في واقعنا وواقع شعوبنا، وأن هذا هو اختيارنا الحضاري كعرب؛ مسلمين وغير مسلمين.

والثانية: هي التعريف الصحيح لحقيقة العلاقة بالغرب وامتداده في فلسطين المحتلة؛ وهو أنهما مشروع استعماري استئصالي واحد، يهدف إلى استئصالنا واستئصال حضارتنا! ولا مبالغة في هذا التوصيف على الإطلاق، وعلى من يشكك في ذلك أن يرجع إلى أدبياتهم وتاريخهم، بدءًا من نداءات «أوربان الثاني» في «كليرمون»، وانتهاء بكتابات «برنارد لويس» و«هنتنجتون» وحتى الرئيس الأمريكي الحالي!

في الأيام القليلة الماضية أعلن مكتب أستاذنا فضيلة شيخ الأزهر عن أن فضيلته وجَّه نداء إلى العراقيين السُّنة بالمشاركة في الانتخابات المقبلة، وكم هو عظيم ورائع أن يكون للأزهر -المنبر والمنارة والتاريخ- كلمته القوية المسموعة في شؤون الأمة وأحوالها! وهو الأمر الذي افتقدناه بعض الشيء، وخطوة قوية للأمام أن يتم تفعيل هذا الدور؛ سواء فيما يتعلق بالإسلام واتصاله الحيوي بالحياة في كل مجالاتها، أو فيما يتعلق بالأزهر وتاريخه المجيد في الذود عن الدين والأمة، ودفع كل خطر يتهددها ويحيق بها، ونحن نرى دائمًا أن (أزهر) قويًا هو قوة للدين والوطن.

وإذا أذن لي أستاذنا فضيلة شيخ الأزهر بمراجعته في مناشدته هذه لإخوتنا في العراق، والتي كان قد سبقها موقف تم تحديده والإعلان عنه من هيئة علماء المسلمين -وهي أزهر العراق إذا جاز الوصف- من هذه الانتخابات؛ وهو مقاطعتها؛ لأن حسابات الواقع الذي يعيشون ويعلمون تفاصيله الدقيقة أملت عليهم هذا الموقف، وحين ذهب السفير الأمريكي إلى مقر الهيئة وقابل الشيخ حارث الضاري «يرجوه» أن يغير الموقف من هذه الانتخابات، كان أن طلب منه الشيخ تحديد جدول زمني للانسحاب الكامل أولاً من العراق، وهو ما لم يتحقق؛ لذلك كنا نرجو من فضيلته أن يكلف أحد مستشاريه السياسيين بالاتصال بهيئة علماء المسلمين، واستيضاح الموقف بدقة، قبل أن يتوجه بندائه بعدم مقاطعة الانتخابات، وهو الأمر الذي ما زال متاحًا.

***



الأبطـــال الربانيون

على الرغم من النزيف الكبير في الأرواح والجراح والدموع، وعلى الرغم من كل هذه الدماء وكل هذا الدمار وكل هذه المآسي المروّعة، على الرغم من قوافل شهداء الكرامة والنور والعزة، لا يزال إخواننا وأهلونا في فلسطين صابرين مصابرين مرابطين وحدهم، في سابقة لم يشهدها التاريخ، أمام عدو شرس قذر قبيح، تدعمه قوى دولية تؤمن بأساطير وهمية! وفي ظروف عربية وإسلامية شديدة السوء، رافضين الذل والتخاذل والانحناء الذي تمارسه أنظمة حاكمة ومنظمات «داجنة» من عشرات السنين تحت مختلف العناوين والمسميات والمعاهدات!! أنظمة ومنظمات ماتت فيها النخوة والكرامة «كأنهم نوع من الصخر أو نوع من الرِّمَم» أنظمة من ذل الخوف كانت حياتهم –بل ومواقفهم وأفعالهم حتى- كأنهم هم الذل نفسه!

ولعل هذا الصبر والمصابرة من أسرار وكرامات وعظمة أولئك الأبطال الربانيين الشجعان، الذين تحول عندهم الشعار إلى حقيقة والقول إلى عمل، الذين رفضوا الذل والدنيَّة والمهانة، وسلكوا بأنفسهم وبمن يستجيب لهم ولندائهم طريق الكرامة والعزة والنور والشهادة.

إن دماء هؤلاء الأبطال الربانيين الذين اتخذهم الله «شهداء» هي التي توقد شعلة الأمل والبشارة والنور والنصر في هذه الظلمة الحالكة، وأعداؤنا يدركون هذه الحقيقة تمامًا ويعملون بكل الوسائل على إطفاء

هذه الشعلة التي اتقدت نارها في قلوب هذه الأجيال، يعملون بكل الوسائل على سحق أرواحهم وإرادتهم وتمريغ أنوفهم في تراب اليأس والمذلة.. وعبثًا يحاولون!

هؤلاء الأبطال الربانيون هم الدليل القاطع والبرهان المبين على تمسك أمتنا بشرفها وحقها وكرامتها رغمًا عن أنوف هؤلاء المرتجفين الخائفين الذين يحاولون فرض هوانهم ورعبهم وهزيمتهم عليها.

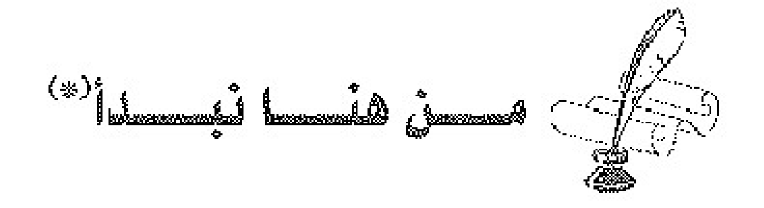
هؤلاء الأبطال الربانيون هم أقوى حجة على قدرة الشعوب على رفض الذل والخنوع والصَّغار والدنيّة إذا نفضوا عن أنفسهم الخوف والتثاقل على المغريات الفانية.

هؤلاء الأبطال الربانيون يضيفون بدمائهم الزكية كل يوم نورًا وضياءً ووهجًا في ضمير أمتنا، ولا يزال النور يزيد ويزيد حتى تتهيأ أحوال الأمة ويأذن الله بأمر من عنده، ويتم النور ولو كره المتبلدون المهانون؛ الذين استمرؤوا المذلة والصَّغار، وما عادوا يشعرون بعار!

هذه الحقائق يجب أن نؤمن بها إيمانًا يقينيًّا وتطمئن بها عقولنا قبل قلوبنا؛ لئلا نصاب باليأس والقنوط والعياذ بالله، ونحن نرى قوافل الشهداء تتوالى وتبقى الأمور في ظاهرها كما هي لا تتغير.. يجب أن نوقن يقينًا لا يتطرق إليه شك أن الله سبحانه وتعالى العزيز القدير لن يضيِّع هذه الدماء التي تحفظ بقايا العقيدة والإصرار والعزم، وتحفظ شعلة الأمل المباركة متقدة في ظلمات اليأس والاستسلام، وتشق الطريق الصعب إلى المستقبل الكريم والنصر المبين، هذا النصر الذي قد نراه بأعيننا، وقد تجنيه أجيال قادمة تتابع طريق الجهاد والشرف والكرامة.

ويكفينا فخرًا واعتزازًا أن نعمل ونعمل، وأن نقوم بواجبنا، وأن نكون جسرًا صُلبًا أمينًا تعبر عليه أجيال هذه الأمة نحو الكرامة والعزة، وسنرَدُّ جميعًا إلى عالم الغيب والشهادة فينبئنا بما كنا نعمل، فالعمل العمل والمقاومة المقاومة! والله معنا، ومن كان معه الله فلن يغلبه شيء، والله إنه حق ويقين.. والله إنه حق ويقين.. والله إنه حق ويقين.. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

***



من هنا نبدأ(*)

التساؤل حول أهمية اشتغال الشباب بالعمل العام؛ والعمل السياسي أحد أهم فروعه.. تساؤل يحتاج إلى مراجعة من بدايته لنهايته؛ لأن الأصل في الحياة أنها كلها سياسية! الاقتصاد يصبُّ في السياسة، والسياسة تصبُّ في الاقتصاد، والنظريات الاجتماعية؛ وداخل فيها خُطط التربية ومناهج التعليم ورعاية النشء وصياغة أفكاره وتوجيهه الوجهة الصحيحة.. عملية سياسية من أولها إلى آخرها، وحتى الحياة الفكرية؛ فلا سياسة بلا فكر، ولا فكر بلا سياسة!

والسياسة وعي ودراية وفهم، وهي أيضًا علم له أسسه وقواعده وأصوله، وهي جزء أصيل في الحد الأدنى لثقافة كلِّ مثقف مهتم بمصالح بلده وأمته؛ لذلك أتصور أن طرح أمر اهتمام الشباب بالعمل السياسي وانشغالهم واشتغالهم به على سبيل ممكن وغير ممكن؛ أتصور أنه إيذاء وإضرار عن عمد بالوطن والأمة في حاضرها ومستقبلها.

من المهم بدرجة كبيرة أن نوضح نقطة مهمة قد يصاحبها بعض الالتباس؛ وهي التمييز بين «العمل العام» و«العمل السياسي»، فالعمل السياسي جزء من العمل العام، وليس كل عمل عام ممارسة سياسية؛ فالمشاركة في العمل الطلابي بمختلف صوره وأنشطته، والتمثيل

(*) جريدة «العربي»، العدد: ٩٠٩، ١٦ مايو ٢٠٠٤م.

والمشاركة الفعالة في العمل النقابي بكل فاعلياته المهنية والاجتماعية، والانخراط في العمل التطوعي البحت، وأعمال وأنشطة الجمعيات الخيرية والأهلية.. كل هذا عمل عامٌ لا يتحتم بالضرورة أن تكون له أي صبغة سياسية أو فكرية، يكفي الرغبة الحقيقية في المشاركة والرغبة الحقيقية في فعل الخير، وأنا أحد المؤمنين بإمكان اشتراك كافة التيارات السياسية في إدارة هذه الأنشطة والفاعليات، بلا أي حساسية، وبدون التطرق للخصوصية السياسية والفكرية لأي تيار، ضمن قاعدة: «نتعاون فيما اتفقنا عليه».

و«مصر» بطبيعتها العبقرية مكانًا ومكانةً وتاريخًا وحضارةً تسع هذه الروح وهذا العطاء، وما تسعه «مصر» لا يسع أي مصري شريف إلا أن يسعه، وأطالب به دائمًا وأدعو إليه، بل أتصور أن هذا مما يساهم بقوة في دفع العمل العام والارتقاء بأدائه، وشيء مشرِّف لأي نظام أن يكثر في البلاد الشباب الذي يؤثر الخدمة والعطاء للصالح العام؛ فيتوافر فيه الإحساس الجاد بالمسؤولية والإيثار، وتغليب ما هو عامٌّ على ما هو خاص، ويجب على الدولة بكافة مؤسساتها أن تستوعب هذه الروح وتزكّيها، وتفسح لها المساحة الضرورية للمشاركة، وتوفر لها كل المعلومات والبيانات الصحيحة، وتحيط هذا الشباب بكافة الحقائق المحيطة بهم وببلدهم؛ بما يكفل لهم رؤية سليمة ومتكاملة، فهذا أروع طريق لاستشراف المستقبل في قوة وصلابة وثقة.

وإذا تطرقنا للعمل السياسي بمعناه الحزبي والتنظيمي المتعارف عليه؛ فهو ضرورة الضرورات لضمان استمرار حيوية وقوة الحياة السياسية الصحيحة، وأحسب أن ما نحن فيه الآن من ترهل وجمود

سياسي؛ على مستوى الممارسة من جهة، وعلى مستوى القيادات من جهة.. ما هو إلا محصلة طبيعية لغلق أبواب العمل السياسي أمام الشباب؛ إما بالتضييق والمضايقة، أو باستتبابات وزرع بدائل فارغة وسامة؛ لشغلهم وإلهائهم، تنحرف بهم عن الاهتمام بمستقبلهم ومستقبل بلادهم!

فلقد تمّ توقيع «صك حرمان» على الساحة السياسية في بلادنا على التجديد والتحديث والتطوير أمام ما يمثله الشباب من حدة الذهن وسعة الأفق وقوة الأمل والطموح.

تروي كتب السيرة أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا حَزَبَه أمرٌ فزع إلى الشباب يبتغي حدَّة ذهنهم، كانت هذه رؤية قائد وزعيم حريص على وصل الشباب بمشاكل بلادهم ومدِّ جسور فكرية بين مختلف الأعمار والأزمنة تصبُّ كلها لصالح الجميع.

هناك بعض الآراء ترى أن مشاركة الشباب في العمل السياسي يهدد بتمزقهم وانقسامهم قبل أن ينضجوا بما يكفي!

وهذا غير صحيح على الإطلاق؛ فالمشاركة هي أهم وسيلة لتحقيق هذا النضج؛ لأن النضج لا يتم في الفراغ، بل بالممارسة والمشاركة، والخطأ وتصحيح الخطأ، وتحقيق نظرية التراكم في الخبرة والمعرفة.

وهناك آراء ترى أن بعض القيادات الحزبية والسياسية القديمة ستسيء استغلال الشباب!

وهذا سوء ظن مخجل بوعي الشباب المصري والعربي، ورغبة مَرَضيَّة في فرض الوصاية والسيطرة الدائمة.

وهناك من يرى أن ما أصاب البرامج السياسية من شيخوخة وتليُّف من شأنه أن يتلف الشباب!

وهذا خطأ كبير في حق الوطن؛ لأن الشباب بحماسه وانفعاله ورغبته الدائمة في التغيير، وتطلعه نحو المستقبل.. هو من سيصلح هذه البرامج ويزيل عنها صدأ الزمن.

وهناك من يرى أن الأزمة التي تعيشها بلادنا على كل مستويات الممارسة الحزبية والسياسية سيتم توريثها بالكامل للشباب!

وغاب عن هؤلاء أن حلَّ هذه الأزمة من الأساس هو انخراط الشباب في العمل السياسي والحزبي.

هذا كله مع افتراض «حسن النية» فيمن يرى هذه الآراء، وهي آراء كما نرى قاصرة ومختلطة وغامضة، وتفتقر إلى المنطق المحكم.

من كل ما سبق يبدو لكل المهتمين بحاضر الوطن ومستقبله أن دفع الشباب للعمل العام؛ والعمل السياسي أحد فروعه المهمة كما ذكرنا.. ضرورة قصوى، تفرضها كل أنواع الخوف والقلق على الشباب من جهة وعلى الوطن من جهة أخرى.

نحن الآن أمام شباب ليس لديه أي انتماء عام، غلبت عليه عقلية وأخلاقيات «الجزر المنعزلة» و«الخلاص الفردي»، وهجَر كل أشكال المشاركة العامة، وانصرف عن حمل هموم الوطن، وهذه كارثة!

نحن الآن أمام شباب يفتقر إلى «القيمة» و«الفكرة»، اهتزت لديه ثوابت كثيرة وخطيرة؛ بدءًا من الأسرة، وفي القلب منها الأب، مرورًا

بكل صور «السلطة»؛ سلطة الضمير، وسلطة القانون، وحتى سلطة الدولة، وهذه كارثة أخرى!

نحن الآن أمام شباب ضعفت في عينه «هيبة الدولة»، ومن المؤسف أن يكون هذا واقعًا حقيقيًا دون أي مبالغة، يتحدث عنه علماء التربية وعلماء النفس وعلماء الاجتماع، وهو أمر مقلق للغاية، يهدد بحالة «انفراط» خطيرة، فهيبة الدولة تتكون في وعي الفرد بالتراكم، والعكس صحيح تمامًا، وتزول هذه الهيبة بتعرضها «لعوامل التعرية» المتعددة؛ من الاستهزاء بإشارات المرور، إلى عدم احترام أحكام القضاء، مرورًا بضعف حضور الدولة في المعاملات اليومية بشكل عام.

وأخيرًا: أنبّه بشكل واضح وقوي على أن التربية السياسية لشبابنا على درجة كبيرة من الأهمية؛ سواء من خلال المدارس والجامعات، أو من خلال الأحزاب والقوى السياسية، والتي ينبغي أن تكون التربية السياسية أحد أهم وظائفها، وأيضًا من خلال أجهزة الدولة المتعددة؛ للوصول إلى حد أدنى من الوعي السياسي والنضج الفكري.

الشباب يمثل أكثر من ثلثي الحاضر، وهو المستقبل كله، وله كل الحق في المشاركة في صياغة وصنع المستقبل برأيه وإرادته، وعلينا جميعًا أن ننظر إلى غياب الشباب عن الحياة العامة على أنها مسألة «أمن قومي» حقيقية، مثلها مثل الغياب عن «واجب الجندية»، وعلينا جميعًا كقوى سياسية وأجهزه حكومية أن تنتبه لذلك قبل أن يأتي علينا ضحى الغد!



الشرعية السياسية في العالم العربي(*)

الشرعية السياسية في أبسط تعريفاتها: هي قبول الناس لأن يلتزموا ويسمعوا للنظام السياسي القائم والحاكم، قبولاً قائمًا على توافق وتوحد بين مبادئ الناس وقيمهم وثوابتهم العامة، وبين النظام الحاكم ومؤسساته المختلفة.

بدون هذه الشرعية يصعب على أي نظام سياسي إدارة «ماكينة الحكم» بالقدرة الكاملة الضرورية لأي نظام مستقر استقرارًا سليمًا على أسس سليمة.

والقوة قد تساعد النظام السياسي في أي بلد على تحقيق الاستقرار بشكل أو بآخر، قد تساعد على ضبط الأمور وعلى إظهار النظام بشكل مهيب، ولكن تظل العلاقة بين الناس والنظام الحاكم في هذا البلد أو ذاك علاقة مضطربة وقلقة، محكومة بسوء الظن بين الاثنين، مليئة بالريبة والتشكك، وتظل هذه النقطة مصدر الضعف الدائم لأي سلطة وأي نظام سياسي، فكل أشكال السطوة والرهبة والتسلط لا تغني أبدًا عن حالة الاقتناع العام لدى الناس بأحقية هذا النظام أو ذاك في السلطة والحكم، هذا الاقتناع أحد المكونات المهمة للشرعية.

والشرعية بهذا المعنى أكبر كثيرًا من أشكال التأييد المألوفة في عالمنا العربي، وأكبر من أشكال المعارضة المألوفة أيضًا في عالمنا العربي!

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٤٤، ١٢ فبراير ٢٠٠٤م.

إن الشرعية لا علاقة لها بالوصف السياسي للنظام الحاكم؛ ملَكيًا كان أو جمهوريًا أو برلمانيًا؛ فهذه أشكال للسلطة ليس أكثر، والمهم هو التّراضي عليها ومنع الاستئثار والاستبداد بها، وإن كان ثبت بدرجة أو أخرى أن النظام الجمهوري هو أفضل شكل تكون عليه السلطة، إذا وجدت الضمانات الكاملة للعملية الانتخابية؛ من النزاهة والحيدة، وأيضًا مراقبة رأس المال والتوظيف السيئ له في هذا المجال من خلال سنِّ قوانين لذلك، ولكن تبقى الديمقراطية رغم كل ذلك أهون من كل أشكال الحكم الأخرى.

في كتاب «البحث عن الشرعية في العالم العربي» لأحد الكُتَّاب الغربيين، متحدثًا عن العلاقة بين المجتمع والسلطة في العالم العربي.. يقول: «إنه حين تقوم السلطة في بلد ما في البلاد العربية بإجراء إحصاء سكاني مثلاً؛ فإن الناس يكذبون في الأرقام التي يقدمونها»!!

وقف مؤلف الكتاب كثيرًا أمام هذه الظاهرة محاولاً فهمها وتفسيرها، وخلص إلى أن سبب ذلك هو حالة «الخوف المفزع» التي تنتاب الناس حين يأتيهم آتٍ من قِبل السلطة! فهم يشكون فيها وفي دوافعها ونوع الأذى الذي تنوي عليه جرّاء هذه الخطوة، حالة الخوف من السلطة هذه، والتي يتوارثها الناس كما يتوارثون الممتلكات.. تقدح في شرعية أي حكم وتجعله في مأزق غير مقبول.

الأمر اللافت للنظر أن معظم الأنظمة العربية -باختلاف أشكالها السياسية والدستورية- يكاد يكون خطابها العام واحدًا؛ نفس المضمون، نفس الروح، نفس المفردات.. فالديمقراطية في أحسن حالاتها، والحرية والمساواة متوافرة كالماء والهواء، والعدالة ترفرف فوق رؤوس الجميع!!

الناس البسطاء بفطرتهم النقية وحسّهم الدقيق على وعي كامل بالفارق الكبير بين ما يُقال وبين واقع الحال، وإذ يتكرر ذلك ويتأكد في الوعي العام للناس تكون النتيجة إحباطًا عامًّا، واكتئابًا عامًّا، وانصرافًا عامًّا عن أي مشاركة أو انفعال أو اهتمام بالشؤون العامة، ويظل اهتمام الفرد ينحسر؛ حتى يكون «جلده وجيبه» هما الدنيا وما عليها! ويكون ذلك هو خط دفاعه الأخير عن وجوده في الحياة.

التوافق العام بين أبناء الوطن الواحد أحد أهم الأركان الأساسية التي تقوم عليها الشرعية، وهذا التوافق الذي لن يكون إلا بوجود «فكرة عامة» تسري وتنساب في عقول وقلوب وضمائر الجميع، توقظ الهمم وتشحذ القدرات وتلهب الشعور بكل المعاني والقيم الكريمة، وليس هناك ما يفوق الإسلام في إحداث هذا التأثير المنشود؛ سواء كان دينًا يدين الناس به ويسعون به ويرجون به الله واليوم الآخر، أو كان حضارة وثقافة ينتمون إليها وتشكل إرثهم المعرفي والتاريخي.

وللأسف الشديد فهذه النقطة لا تشغل المكان المناسب لدى الأنظمة الحاكمة في العالم العربي، اللهم إلا إذا تحدثوا عن السمع والطاعة لـ«أولي الأمر منكم» أو في مناسبات موسمية! كما أن النخبة المثقفة لم تستلهم الإسلام بتمامه وكماله بعد.

***

احـــذروا التعويق(*)

مما لا شك فيه أن واقع العالم العربي الإسلامي اليوم ما هو إلا أثر من آثار الاستعمار الأوروبي القديم، الذي عاث فسادًا في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي طوال قرن من الزمان؛ نهب فيه من الثروات ما نهب، وأفسد في الأرض فيه ما أفسد، وأوجد الفتن والمشاكل العرقية والحدودية بين البلاد العربية والإسلامية، وصنع «إسرائيل» بدعاوى كاذبة عن أرض بلا شعب وشعب بلا أرض!! هادفًا إلى إقامة حاجز منيع بين «مصر» و«الشام»، بعد أن ثبت من تجارب التاريخ أن التواصل الجغرافي لهذه المنطقة يحقق للأمة الإسلامية قوة ومنعة، وفي الوقت نفسه يزيح عن الضمير الأوروبي تهمة تحقير اليهود وإهانتهم، والتي هي حقيقة من الحقائق التاريخية، وليست مجرد تهمة، ونذكر بهذا الصدد مقولة «أبا ايبان» الوزير الإسرائيلي الأسبق: إن اليهود طوال تاريخهم كأقلية لم يشعروا بالأمان إلا مرتين؛ مرة في العهد الإسلامي بـ«الأندلس»، والمرة الثانية في «أمريكا»!!

ولكن أخطر آثار هذا الاستعمار سوءًا -في اعتقادي- هي محاولات استئصال الإسلام الحق من قلوب المسلمين، وإضعاف الصلة بينهم وبينه، وتفريغه من جوهره وحقيقته.. تلك المحاولات التي هي

(*) جريدة «العربي»، العدد: ٨٩٩، ٧ مارس ٢٠٠٤م.

قائمة حتى أيامنا هذه، ورغم كل محاولات الاستنقاذ والإصلاح والإحياء التي بُذلت على مدار السنين الماضية لتنظيف العالم الإسلامي من هذه الآثار؛ إلا أن الأمر ما زال على غير ما يتمناه كل مسلم محبٍّ لدينه وأمته.

صحيح وثابت أن هناك يقظة إسلامية عامة وقوية في مجتمعاتنا على مستوى الالتزام والاقتراب من الدين، الكلُّ يقرُّ ويشهد بها، وهي في وصفها رحمة وفتح من الله، لم يصنعها تيار وحده، ولم ينشئها حاكم بعينه، يقظة شهدتها المنطقة كلها؛ سواء في البلدان الإسلامية العربية أو غير العربية، ولكن صحيح أيضًا أن هناك قوى معادية لهذه اليقظة تراقبها وترصدها، وتبذل جهودًا شتى لوقفها ووضع العقبات في طريقها، وأنا من المؤمنين أن محاولات الوقوف في وجه «التدين» في مجتمعاتنا مدبرة ومخططة؛ إما على مستوى الفكر أو على مستوى السلوك، والشواهد على ذلك كثيرة.

أتصور أن هناك تحالفًا غير معلن بين أشتات من القوى وأصحاب المصالح للحدِّ من ظاهرة التدين والالتزام، يختلفون في منطلقاتهم ويتحدون في هدفهم؛ فهناك من يحارب التدين كونه يؤثر في الشخصية؛ فيوجِد إنسانًا قويًّا يشعر بالكرامة الإنسانية التي يغرسها فيه كونُه عبد الله وحده خالقه ورازقه ومميته ومحييه، وهناك من يحارب التدين كونه يدعو إلى العدالة الاجتماعية وأن لا يكون المال ﴿دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، وهناك من يحارب التدين كونه يدعو إلى رفض الذل والتبعية والسيطرة والاستقطاب والجهل والتخلف.

ودون خوض في تفاصيل نجد أن هناك حربًا بشكل أو بآخر بحجم أو بآخر لوقف مدِّ التدين في نفوس المسلمين.

وهكذا نجد أنفسنا أمام خطين واضحين؛ خط الحركة الإسلامية التي تهدف إلى تضييق الفجوة بين المسلمين ودينهم، وإحياء معنى الكرامة والحرية والعدالة في نفوسهم بدعوتهم إلى التدين الصحيح الكامل، وخط آخر يقف في وجه الحركة الإسلامية ويعوق مسيرتها بكل أشكال الإعاقة والتعطيل، وتلك سنَّة الحياة من قديم التاريخ، تحكيها لنا الحضارات المختلفة، عما واجهه دعاة التفكير والفضيلة والطهر من عداوات ومطاردات.

إلا أن ما ينبغي التذكير به والتنبيه إليه هو الوعي بذلك؛ الوعي بما يوضع في طريق العاملين في حقل العمل الإسلامي من معوقات وأشكال تلو أشكال من التعطيل والتجميد والاتهامات الباطلة والمصطنعة، تهدف في أساس ما تهدف إلى إيقاف ظاهرة التدين وما يعقبها من يقظة في هذه المنطقة من العالم.

هذا هو الموقف ببساطة شديدة ووضوح شديد، دون أي تعقيد في مصطلحات ونظريات، وإن لم نقترب في تشخيصنا للموقف من ذلك فنحن كمن يسكنون «أبراج الصمت»، والعياذ بالله.

ويحضرني في هذا المعنى كلمات ناطقة بكل أنواع الألم لشاعر عراق العروبة والإسلام، طهره الله من المحتلين.. الأستاذ «أحمد مطر»؛ إذ يقول :

الغرب يرتاع إذا عبدت ربًا واحدًا

في هدأة المحراب!

وهو الذي يمجن لي من شعرات ذيله

ومن تراب نعله ألفًا من الأرباب!

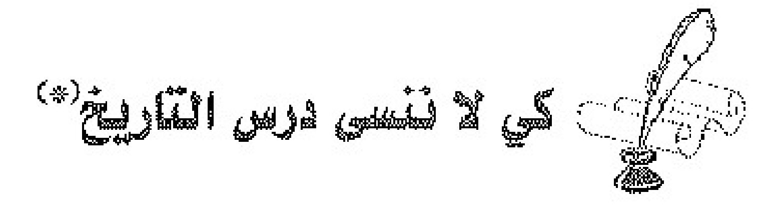
ينصبهم فوق ذُرا مزابل الألقاب

كي أكون عبدهم

وكي أؤدي عندهم شعائر الذباب!!

أتصور أن كل هذه المحاولات لن تخلص إلى النتائج التي يرجونها؛ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وأقول لإخواني وأخواتي العاملين في حقل العمل الإسلامي، الداعين إلى الله وإلى التدين الصحيح الكامل.. أقول لهم: احذروا هذا التعويق المبيَّت والمخطط، حذرًا يصاحبه عمل ودأب وجهاد، وليس حذرًا يقعد بنا عن القيام بأهم مقصد من مقاصد الشريعة؛ وهو «حفظ الدين»، وأُذكِّر بأهمية القدوة السليمة الحسنة في تربية شبابنا وأبنائنا تربية عميقة على التدين الصحيح؛ الذي يدفع إلى التفكير وإعمال العقل، والذي يدعو إلى الكرامة ورفض المهانة، والذي يدعو إلى العمل المتقن المجوَّد وهجر الكسل والتبلد، والذي يدعو إلى العلم والمعرفة والبحث والاكتشاف، التدين -ببساطة شديدة- الذي يصنع الفرد الصحيح القوي الذي هو عماد النهضة التي طال حلمنا بها، والتي هي -إن شاء الله- قريبة.



كي لا ننسى درس التاريخ(*)

من أهم ما يميز دولة «إسرائيل» منذ أن كانت حلمًا وفكرةً هو وضوح الرؤية لدى مؤسسيها وقادتها بخصوص جزئية شديدة الأهمية؛ وهي «أن العودة إلى أرض الميعاد يجب أن تصاحبها عودة إلى اليهودية، وأن إسرائيل ستظل وتبقى ما بقي ارتباطها بالتوراة»!

إسرائيل القومية وبقاء الدين اليهودي أمران لا ينفصلان، وهذه حقيقة الحقائق عند العلمانيين والدينيين على السواء، هذا كله - للأسف- لا يقابله عندنا سوى الجري وراء السراب وغبش الرؤية! فبعض علمائنا يحاولون من فترة لأخرى أن يغرسوا في وعينا التفريق بين اليهودية والصهيونية، في الوقت الذي تُعَرِّف فيه إسرائيلُ «الصهيوني» بأنه: «اليهودي الذي يقيم في إسرائيل أو يستعد للهجرة إليها»!

هذا هو الأغلب الأعم، قد يكون هناك يهود (في حالهم)! لا يقيمون في إسرائيل ولا ينوون الهجرة إليها، بل إن بعضهم يرفض فكرة «أرض الميعاد» من أساسها وفكرة جمع يهود العالم في وطن واحد.

ولكن متى كان الاستثناء هو القاعدة؟!

يقول «بن جوريون» في تقديمه لكتاب «تاريخ الهاجاناه»: «في بلادنا لا يوجد مكان إلا لليهود! وسنقول للعرب: اخرجوا من هنا! وإذا

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٥٠، ٢٥ مارس ٢٠٠٤.

أبدوا أي مقاومة سنخرجهم بالقوة»!! ويقول أيضًا: «تستمد الصهيونية وجودها وقوتها من مصدرين؛ مصدر عميق عاطفي دائم، وهو مستقل عن الزمان والمكان، قديم قِدَم الشعب اليهودي ذاته، وهذا المصدر هو «الوعد الإلهي»، أما المصدر الثاني فهو ثمرة الفكر السياسي العلمي الناشئ عن ظروف الزمان والمكان، والمنبعث مع التطورات والثورات التي شهدتها شعوب أوروبا في القرن التاسع عشر، وما خلفته هذه الأحداث الكبرى من آثار عميقة في الحياة اليهودية».

وفكرة الحنين إلى «أرض الميعاد» التي يذكرها «بن جوريون» هي عقيدة دينية جاءت في التوراة المتداولة بينهم؛ «على أنهار بابل جلسنا.. بكينا عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف.. إن نسيتك يا أورشليم تنسني يميني، وليلتصق لساني بفمي إن لم أذكرك»!

وقد وجدت الصهيونية في هذا النص سندًا قويًّا لتأكيد فكرتها، واعتبرت نفسها تحقيقًا للمعجزة التي بدأت تتحقق على يديها؛ فقد بدأت الأمم تأتي بأبناء اليهود وبناتهم إلى «فلسطين»، وبصدور وعد «بلفور» ١٢/ ١١/ ١٩١٧م وموافقة «عصبة الأمم»، وبتأييد «أمريكا» و«فرنسا» و«إنجلترا» و«روسيا» و«إيطاليا».. اكتمل سيناريو التعدي والاغتصاب!

هذه النصوص وغيرها مليئة بمفردات العزلة، وإذكاء نار الكراهية لكل الناس، فهم شعب الله المختار العبقري المتميز؛ «إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب التي على الأرض»! وهذا الاهتمام بالدين واللغة اهتمام يفوق اهتمام أي أمة أخرى بدينها ولغتها؛ فكيف يمكننا إذًا التفريق بين اليهودية والصهيونية؟! وما هو المعيار الذي يستخدم في ذلك؟!

لقد عاش اليهود معنا منذ فجر الإسلام، وتمتعوا بحقوق المواطنة الكاملة، ولم تمتد إليهم يد بسوء، فإذا كان هناك من علمائنا من يفرِّقون بين اليهودية والصهيونية، فليس أقل من أن نتيقن أن الصهيونية هي التطبيق العملي للقيم اليهودية المستمدة من التوراة المتداولة بينهم، تلك القيم التي جعلت اليهود يأتون من أشتات الدنيا إلى «فلسطين» لتشريد أهلها واغتصاب أرضها تحقيقًا لحلم إسرائيل الكبرى وبناء الهيكل!

ومن المغالطات الفجَّة أيضًا بهذا الصدد تقسيمة «اليمين» و«اليسار» هذه، يقول المرحوم الأستاذ الدكتور حامد ربيع في كتابه «إطار الحركة السياسية في المجتمع الإسرائيلي»: «إن هذا المنطق بدأت ترد ده الدعاية الإسرائيلية عقب هزيمة ١٩٦٧م وسقوط القدس بأيديهم، وبشكل خاص عقب مبادرة «روجرز»، وتحت شعار الانفتاح على اليسار الإسرائيلي، وهو منطق استطاعت الدعاية الإسرائيلية أن تخطط له بدقة ونجاح بغرض إضعاف إرادتنا في المواجهة من جانب، وإيجاد المصالح المترابطة مع الوجود الإسرائيلي من جانب آخر.

الأدوات كانت عديدة، ولكن أبرزها كان التلاعب بفكرة اليمين واليسار في المجتمع الإسرائيلي، وقد وقع -وما يزال- في هذا الخطأ -ولنقل بحسن نية- بعض السياسيين والمفكرين العرب، ولو أنهم عادوا إلى بعض المؤلفات العلمية الصادرة عن علماء صهاينة ينتمون إلى الجامعة العبرية لوجدوا أنهم ينفون عن تلك الأحزاب الإسرائيلية صفة «اليسار»، ويقولون: إنه لا وجود للمنطق اليساري في الإيديولوجية الصهيونية».

وهكذا فاليقين والمؤكد لدينا من خلال ما هو معلن من مبادئ وأفكار، أو من خلال الواقع والمشاهدة.. أن اليهود جاؤوا إلى «فلسطين» لاغتصابها باسم التوراة مع اختلاف انتماءاتهم الظاهرية، ما الحيلة إذن إذا كان «تديين» الصراع قد تمَّ من أول يوم تمَّ فيه التعدي والاغتصاب وما يزال هكذا حتى يومنا هذا؟!

يحدث هذا في الوقت الذي يصرُّ فيه البعض على إبعاد الإسلام عن ساحة القضية تمامًا، وهذه النقطة من أخطر تداعيات صراعنا معهم، بل إن السياسيين والمثقفين الصهاينة شديدو الحرص بدرجة هائلة على ألا يأخذ الصراع من جانبنا هذا البعد، فهم على وعي جيد بالتاريخ ودروسه، خاصة تاريخ المائتي عام الصليبية في الشرق، والتي انتهت بالتحرير والتطهير الكامل للمسجد الأقصى، بعد أن اجتمعت الأمة لتحقيق هذا الهدف تحت راية الإسلام.

لنتذكر أن قضيتنا عمرها أقل من ستين عامًا، وبشائر الأمل قريبة إن شاء الله.

***

كـــان يقتات على الحُب(*)

عرفت الحاج «عباس السيسي» منذ ما يزيد على ربع قرن، كان لتوه خارجًا من سجن طويل، مفعمًا بأمل قريب، وقدرة على الحركة والنشاط تستعجب لها! كون صاحب كل هذه الصفات خارجًا من تجربة اعتقال طويلة وأليمة، وبدأ من فوره يتواصل مع أجيال الشباب التي كانت قد عرفت طريقها للالتزام بأشكال مختلفة، وتواصلت يداه هو وإخوانه بأيديهم، وكان دوره في ذلك كبيرًا، وتشهد له مدينة «الإسكندرية» بما كان منه من احتضان حنون للشباب، فقد شكَّل وعيهم، وعلَّمهم كيف يحبون دينهم ووطنهم، وكيف يتفانون في خدمة مَن حولهم بالحب والعطاء ويكونون في الوقت نفسه يتعبدون إلى ربهم.

تعلمنا منه الكثير والكثير، وأكثر ما تعلمناه منه كيف يكون «الحب»! سواء فيما بيننا وبين بعضنا بعضًا، أو فيما بيننا وبين الناس، وكيف تتلاقى الأرواح وتتناجى بالحب! وكيف تتعانق القلوب وتتلاحظ بالحب! وعرفت منه فيما بعد أنه شرب كل ذلك وارتواه من أستاذه ومعلمه «حسن البنا»، الذي وصفه أحد المؤرخين بأنه كان يقتات على الحُب!!

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٨٢، ٤ نوفمبر ٢٠٠٤م.

وسار بين شباب الإخوان يعلمهم كيف يدعون إلى الله بحب! فكتب الرسائل، وحاضر المحاضرات، وعاش بينهم في المخيمات والمعسكرات، لا هَمَّ له إلا أن يعلمهم أن الدعوة إلى الله حب.

تعلمنا منه كيف يكون الخلاف في الرأي تنوعًا وتكاملاً وثراء، ولا يكون أبدًا مدعاة للخصومة والتنافر، وكان دائمًا ما يقول: «كما أن هناك أبيض وأسود، هناك رمادي»!

تعلمنا منه أن «كدر الجماعة خير من صفو الفرقة»! فعشنا بهذه المعاني بين إخواننا، فكان كدرهم صفوًا، وكان صفوهم حبًّا خالصًا لوجه الله الكريم.

رحم الله والدنا وأستاذنا الحاج «عباس السيسي»، عاش على رسالته وفكرته، وتوفاه الله في ليلة من ليالي رمضان على رسالته وفكرته، فلا بدَّل ولا غيَّر، ولا اعوجَّ ولا انحرف.

اللهم اغفر له وارحمه واعف عنه، وأكرم نزله ووسع مدخله، اللهم جازه بالحسنات إحسانًا، وبالسيئات عفوًا وغفرانًا، اللهم أنزل على قبره الضياء والنور، والفسحة والسرور، اللهم تغمده برحمتك يا أرحم الراحمين، واجعل قبره روضة من رياض الجنة.

***

ديمقراطية «أمريكا» لا تشغل بالنا بل رائحة البارود في خطابها!!(*)

شكرًا للدكتور «عبد المنعم سعيد» على ما تفضل به من قراءة وتعليق على أطروحة «المفهوم الإسلامي للإصلاح الشامل» في مقاله النقدي بجريدة «الشرق الأوسط»، وأود أن أبدي بعض الملاحظات على ما كتبه، أرجو أن يتسع لها صدره.

ما دفعني للحديث في مقدمة أطروحتي عن التجربة الديمقراطية في «أمريكا» بالتحديد سبب بسيط للغاية وشديد الوضوح لكل المشتغلين بالعمل العام؛ وهو تلك الصيحات المتتالية من رؤوس الإدارة الأمريكية في هذا التوقيت عن ضرورة فرض الديمقراطية بالقوة على الأنظمة والمجتمعات غير الديمقراطية؛ خاصة في الشرق الأوسط!

وإذا كانت الديمقراطية هي أروع ما توصلت إليه الإنسانية عبر تراكم حضاري طويل لحل معضلة السلطة والحكم في المجتمعات إلى وقتنا هذا، فهي أيضًا -كفكرة ونظام- لها بعض العيوب، أبرزها ما تفضل الدكتور «عبد المنعم سعيد» بذكره؛ عن المساواة في الثروة والتعليم، وما ذكرته -من جانبي- عن المال والإعلام، إلا أنها في المجتمع الأمريكي أكثر بروزًا؛ نظرًا للطبيعة الاستثنائية التي نشأت عليها

(*) جريدة «الشرق الأوسط»، العدد: ٩٣٧٨، ١ أغسطس ٢٠٠٤م.

«أمريكا»؛ من تقلص روح الأمة، ونهوض روح الشراكة ذات الطابع «البراجماتي» كما ذكر الكاتب «محمد حسنين هيكل»، وكثيرون غيره وقفوا أمام التجربة الديمقراطية في «أمريكا» بكثير من التحفظ.

وقبل أن أترك هذه النقطة أود أن أضيف ما ذكره أيضًا «ناعوم تشومسكي»؛ اليهودي النبيل، فاضح الأكاذيب، وبطل الناس العاديين، الثامن في قائمة أكثر عشرة مفكرين يُستشهد بأقوالهم.. عن سيطرة الشركات متعددة الجنسية على الحياة السياسية في «أمريكا»، وما تضخه وسائل الإعلام من أكاذيب -ليلاً ونهارًا- في رأس المواطن الأمريكي البسيط!

نحن -في كل الأحوال- لسنا مشغولين إلى هذه الدرجة بحقيقة الديمقراطية في «أمريكا»، ولكن «رائحة البارود» التي نشتمُّها في خطابهم جعلتنا نُقلِّب الأمر على وجوهه المتعددة، فالمسألة ليست «فضيلة سياسية» أو «تعَرُّض وتعريض» بدولة يراها الكاتب «عظمى»، ولسنا معنيين كثيرًا بما يفعله الأمريكيون من معالجة لمشكلة المال والإعلام، وإن كنت أتصور أن الأمر مستفحل، كما فهمت من محاضرة للأستاذ الدكتور «جون بينون» أستاذ العلوم السياسية بجامعة «ستانفورد»، وأن الإدارة الأمريكية تم خطفها من قِبل أصحاب المال والإعلام! وهم فئات معروفة.

التاريخ الإسلامي الذي يذكره الدكتور «عبد المنعم» هو تاريخه وتاريخي وتاريخنا جميعًا، به أدبيات على شاكلة: «لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناك»، و: «أعينوني ما استقمت»، وأدبيات على شاكلة:

«ما شئت لا ما شاءت الأقدار»!! وهو في النهاية تجربة إنسانية؛ بها الحسن وبها السيئ، ونحن بدورنا نقرأ ونفهم ونتعظ ونعتبر ونأخذ وندع، ولسنا في معرض سجال وتعريض بطرف يدافع عن العرب والإسلام، وطرف يدافع عن «أمريكا» والغرب، فقط نحن نبحث عن الحقيقة والصواب.

حلُّ معضلة المال والإعلام التي نفى الكاتب وجودها في الأطروحة، هو ما ذكرته بالنص «صناعة الإنسان الحر الرشيد، القوي بمبادئه، الغني بأفكاره وإيمانه، الذي يهديه إلى التمييز الدقيق بين أصحاب المصالح وأصحاب المبادئ، بين أصحاب المال والنفوذ وأصحاب العقل والرأي الإنساني، الذي تتحقق حريته الكاملة وإنسانيته الكاملة كما أرادها له خالقه سبحانه وتعالى».

الإنسان الذي تربيه أسرته في البيت، ومعلمه في المدرسة، والرمز الجميل في السينما والمسرح، والبطل النبيل في الرواية والقصيدة.. على رجاحة الحكم وسعة الأفق ورهافة الحس الإنساني، الذي يعلي من قيمة الحوار، ويرى الاختلاف والتعدد على أنهما من حقائق الحياة، ويستطيع أن يقول: «نعم» ويقول: «لا» في اعتزاز وكرامة، الذي يتمتع بروح المسؤولية والمشاركة والتعاون، وهو ممتلئ إحساسًا بالكرامة التي أرادها له خالقه ﷻ.

وأؤكد أنه لا إغلاق ولا تقييد لوسائل الإعلام والصحافة في مجتمع حرٍّ، وأضيف أنه كلما كانت مجتمعاتنا تتمتع بالحرية والكفاية والعدل كانت أقرب إلى الإسلام، وأكاد أن أصل إلى قناعة بأن الدعوة

إلى الحرية والعدل والكفاية والرفاهية -في حد ذاتها- دعوة إلى ما أؤمن به من أفكار إسلامية؛ لأن هذا الذي «الفقر يطارده والجوع يهدده!» لا يُنتظر منه أن يهتم بغير فقره وجوعه، وهذا ما أكدت عليه في أطروحتي من ضرورة «قيام روح اجتماعية جديدة، تتعاون فيها حكومة نشيطة ذات فعالية، مع قطاع أهلي يتمتع بالحيوية والإحساس الوافر بالمسؤولية الاجتماعية».

ليس صحيحًا أن ما ذكرته هو «شكل جديد من أشكال الفكر الاستبدادي»، أو أنني أدعو لأن يكون «النص الديني هو دستور الدولة»، بل دعوت لأن تكون «المواطنة في الدولة المدنية المنشودة هي أساس الوجود في المجتمع داخل إطار ديمقراطي، وأن الجماهير هي الحَكَم؛ من خلال انتخابات حرة يكون فيها شرف الصوت الانتخابي للمواطن جزءًا لا يتجزأ من شرفه الشخصي»! ودعوت إلى «الحد من توحش الدولة، وإعلاء شأن المجتمع؛ بالأحزاب القوية والنقابات القوية والجمعيات الأهلية الفاعلة والمؤثرة».

أختتم ردي هذا بعتاب للكاتب، كونه تعامل مع ما كتبته في هذه الأطروحة بحدَّة واستنفار لم يكن هناك ما يبررهما في رأيي، إلى حد أنني تصورت أنه «يستكثر» علينا أن نتحدث بهذا المنطق!! سواء في الحديث عن بشرية الخطاب الإسلامي، أو الحديث عن الحرية التي بغيابها تحل بالبشر أعظم كارثة، أو الحديث عن المساواة بين الناس جميعًا في ممارسة حقوقهم، أو الحديث عن العدل الكامل وتوزيع الثروة والدخول، أو منع الاستئثار بالسلطة، أو وضع الضمانات الكفيلة بحماية المساواة السياسية والقانونية بين كل فئات المجتمع من أي انحراف سياسي أو

مذهبي، أو عن «المرأة الإنسان» التي نريد حضورها القوي فكريًا وعقليًا وروحيًا في المجتمع، بكل ما تملك من قدرات وإمكانات، كل ذلك لم يتطرق إليه الكاتب، لا من قريب ولا من بعيد!!

وأخشى أن يكون هناك نفر من مثقفينا ومفكرينا لا يريد للخطاب الإسلامي أن يحوي هذه الركائز والأسس، وأن يظل الحديث يدور في تلك الدوائر الضيقة عن الحدود وظُلّم الخلفاء، واللحية والنقاب، وعذاب القبر!!

عتابي «محمودٌ عواقبُه»! وهو محمود أكثر لو قرأ أطروحتي مرتين!!



عن «إسلامية» الثقافة.. وأشياء أخرى(*)

يقول الأقدمون: «لا مشاحة في الاصطلاح»؛ بمعنى أن الاصطلاحات يتعدد المقصود منها وفق محددات كثيرة، وتختلف الحضارات في مصطلحاتها اللغوية من حضارة إلى أخرى، كما أن هذه المصطلحات تختلف في معانيها باختلاف الزمان، ولهذا حديث آخر.

ما يعنينا هنا هو النظر في مصطلح «ثقافة»، فيكاد يكون هناك شبه إجماع على بعض التعريفات لها، أكثرها شهرة مثلاً: «أنها مجموعة الأفكار والمعايير التي تأخذ بها جماعة من الناس وتلتزم بها في حقبة من الحقب»، وهي أيضًا: «مظهر من مظاهر تسامي الإنسان فوق مستوى الغريزة، ونجاحه في بلوغ مستوى القيم»، وهي أيضًا: «المعرفة بالفكرة الملزمة وتعلم مقوماتها؛ التي تعني استخدام جميع ملكاتنا العقلية والعاطفية والضميرية في عالم السلوكيات»، وهذا التعريف الأخير «لمالك بن نبي».

ومن الأشياء المهمة التي يجب أن نعلمها جميعًا أن الثقافة تختلف عن العلم، فإذا كانت الثقافة هي تعلُّم الحضارة بأسلوب معين، فليس العلم إلا مجرد نتيجة وثمرة من ثمار الحضارة.

(*) جريدة «الأسبوع»، العدد: ٣٤٥، ١٣ أكتوبر ٢٠٠٣م.

ندلف إلى موضوعنا الرئيس؛ وهو «إسلامية» الثقافة، وأنا أعلم أن بعضنا لديه حساسية من فكرة «الأسلمة» هذه! وأحيانًا بالفعل تكون هناك مبالغة ومزايدة قد تصل أحيانًا إلى حد اللامقبول في هذه الفكرة، ولكن في حالتنا هذه أتصور أن الأمر ليس إلا «واقع حال» كما يقولون.

فمما لا شك فيه أن هناك ثقافة مميزة للمسلم، تمتاز بأنها تقوم على فهم الوحي وأحاديث الرسول والتطبيقات الراشدة في التاريخ، ونضع ألف خط تحت المقطع الثالث هذا، وبالطبع دراسة السنن الإلهية والقوانين الكونية الثابتة، وقوانين المجتمعات وتفاعلها مع قيمة التقدم ومع التخلف والصحة والمرض والفقر والثروة والنصر والهزيمة، فلكل شيء قانونه وأحكامه التي لا تكاد تتغير، ومن هنا نستطيع أن نُعرِّف «إسلامية الثقافة» بأنها نموذج تعامل أنتجته «فكرة» منبثقة عن «الوحي».

ومن هنا مثلاً نستطيع أن نفهم أن مصطلح «الثقافة» يتسع لـ«إلحاقات» متعددة، فهناك مثلاً «الثقافة الإغريقية»، التي نعلم كلنا عنها أنها كانت تتميز بالإفراط في تقديس الجمال، والاندفاع الجنوني وراء مظاهره في الفن واللذة وغير ذلك، ونجدها تخلو تمامًا من قيم الطهر والواجب والنقاء بشكل يُفقد الأمر توازنه، وفي نفس المسار نجد أن «الثقافة الإسلامية» تركز على هذه القيم تركيزًا قويًا.

من هذا المثال نستطيع أن نتصور أن «إسلامية» الثقافة -دون أن نلوي عنق المعاني لمزايدة أو مبالغة- تعطي معنى التوازن الذي يجعل القيم الحضارية متسقة ومنسجمة في (هارموني) يمنح الحياة تكاملاً وتقدمًا وعدلاً وسعادة، تلك السعادة التي هي أحد أهم أهداف الإنسان في الحياة.

ومن أبرز قيم هذه الثقافة قيمة «الحرية»، والتي بغيابها تحل بالبشر أعظم كارثة وتتجسد في حياتهم أعلى صورة من صور الفساد في الأرض؛ ذلك أن الله -تباركت أسماؤه- خلق الإنسان ومنحه «حرية المشيئة» على الأرض، فعندما يأتي أحدهم ويصادر هذه «الحرية» فإنما يصادر معنى وجود الناس من الأساس! وتلك جريمة كبرى تُقترف على الأرض، باعتبار أن رسالة جميع الرسل تهدف أساسًا إلى «تحرير الإنسان» من العبودية لغير الله، أيًا كان هذا الغير.

ومن أبشع وأقبح أشكال مصادرة «حرية المشيئة» هذه «الديكتاتورية»؛ ذلك الوحش الأسود القابع في ظلمات الحكم والسياسة، وعكس ذلك بطبيعة الحال «الديمقراطية»، والتي تصبح بهذا المعنى إحدى أهم القيم الأساسية في «إسلامية الثقافة»؛ من حيث إن ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب، ومن المحال أن تكتمل «حرية المشيئة» للإنسان على الأرض في غياب الديمقراطية.

- في عام ١٧٧٤م طلبت روسيا القيصرية أن ينضوي كل «الأرثوذكس» في العالم تحت حمايتها، وأصدرت بهذا المعنى ما يعرف بمعاهدة «كينارجي»، ورفض أقباط «مصر» وقتها الانضمام لهذه المعاهدة أو هذا الاتفاق، وكان على رأس الرافضين بطبيعة الحال البابا «بطرس» بطريرك الأقباط، فما كان من «محمد علي» حاكم «مصر» في هذا الوقت إلا أن ذهب إليه في البطريركية يشكره على هذا الموقف المجيد، قائلاً له: لقد رفعت بذلك من شأني ومن شأن أمتك!

- وفي نوفمبر ١٩١٩م في أوج ثورة «الأمة المصرية»، عُهد إلى من يدعى «يوسف وهبة» بتشكيل الوزارة، وكان للاختيار مفهومه

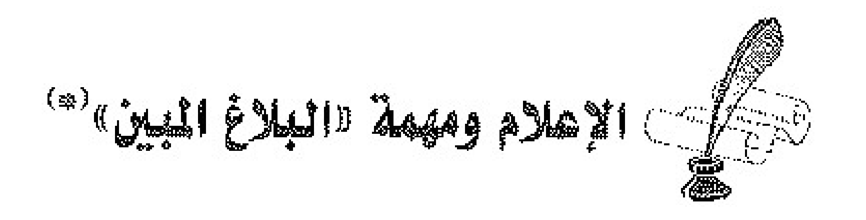
ودوافعه، فتنبه الأقباط لهذا الغرض المريب، وكان أن خرج منهم الشاب «عريان نصيف» في ١٥/ ١٢/ ١٩١٩م ليقوم باغتيال هذا الـ(يوسف وهبة) والتخلص منه! وتفويت الفرصة على الإنجليز من هذا الاختيار، ولكن المحاولة فشلت وقتها.

تذكرت ذلك، وكثيرًا غيره، بعد أن انتهيت من قراءة الحوار الأخير لقداسة البابا «شنودة» مع الأستاذة «سناء السعيد» في جريدة «الأسبوع»، وكم هي مجيدة مواقف الكنيسة القبطية! وكم هي مجيدة مواقف قادتها!

- الصراع الذي بيننا وبين الغرب ليس عارضًا استجدَّ علينا، بل هو جزء من صراع تاريخي طويل قائم منذ قرون، يحمل شعارًا مختلفًا في كل مرحلة؛ لأنه وللأسف الشديد قد اختار الغرب لنفسه من البداية أن يكون هجوميًا ومتعاليًا ومتغطرسًا في كل العصور وعلى كل الأجناس، مؤكدًا أن القوة فوق الحق وأن الغاية تبرر الوسيلة!

- إذا كانت الوثنية في نظر الإسلام «جاهلية» فإن «الجهل» في حقيقته وثنية؛ لذلك لم يكن من باب الصدفة أن تكون الشعوب البدائية وثنية ساذجة، ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الأفكار تبزغ الأصنام. «مالك بن نبي» المفكر الجزائري.

- الذين يزعمون أن من حقهم أن يقولوا ما يشاؤون باسم «حرية الكلمة» دائمًا ما ينسون أن «شرف الكلمة» يأتي قبل حريتها، وقد كان حريًا بهم أن يتذكروا هذا المعنى قبل أن (يهلفطوا) بكلام يتجاوزون به قيمة «الحرية» وقيمة «الشرف» في الوقت نفسه!



الإعلام ومهمة «البلاغ المبين»(*)

قال ﷺ: «إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»، وقال: «سيد الشهداء حمزة، ثم رجل قام إلى إمام ظالم فأمره ونهاه، فقتله!»؛ أي أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، وقام بأداء رسالة البلاغ المبين التي كلفه بها الله سبحانه وتعالى ولم يتجاوزها، فكان مصيره القتل.

مهمة البلاغ المبين التي هي رسالة الأنبياء والشرفاء من الرجال ليست بالسهولة التي قد تبدو للبعض، خاصة في الوقت الذي أصبح فيه «الإعلام» من أقوى الأسلحة التي تمتلكها الأمم والدول، والتي يمكن أن تكون أشد فتكًا من أسلحة الدمار الشامل (إياها)!

ذلك أن الإعلام في هذا العصر تجاوز مرحلة تزييف الحقائق وقلبها إلى أباطيل، ووصل إلى مرحلة زرع اهتمامات الإنسان وإعادة صياغته بالكامل، ومن ثم أصبح علمًا من أخطر العلوم، وتم توظيف الكثير من العلوم لخدمته؛ كعلم النفس وعلم الاجتماع والدراسات التجريبية، بل لقد أصبحت التكنولوجيا كلها في خدمته تقريبًا، وصار من اللازم أن تتغلب مهمة «البلاغ المبين» على المصاعب والعقبات التي تُزرع أمامها؛ لتجند أسباب ووسائل الإعلام الحديثة لتنهض برسالتها ودورها في عصر الإعلام المعقد، وفي حرص من الدعاة إلى الله على التزام منهج

(*) جريدة «آفاق عربية»، العدد: ٦٣١، ٣٠ من أكتوبر ٢٠٠٣م.

النبوة وحكمتها؛ وصولاً للتغيير المطلوب والمأمول من خلال حوار يعتمد المنطق والحجة والتدبر، ويسعى إلى الحق دون سواه، خاصة وهم يواجهون إمبراطوريات إعلامية عاتية جرى تسخيرها لحجب أو مهاجمة أو تشويه الإسلام والمسلمين!

كما صار من الأهمية بمكان أن نقيس صورة وواقع ومدى فاعلية مهمة «البلاغ المبين» اليوم أمام صورة الإعلام العالمي بكل طغيانه وسيطرته وقدرته، وسعيه إلى أسْر الفرد في مادته وأفكاره ورسمه في ذهنه ووعيه بالصورة التي يختارها، مزيِّنًا له الاهتمامات التي يريدها له ليأخذه إلى المواقع التي يحددها له، حتى يسلبه كل قدرة إلا قدرة التبعية والتلقي والاستجابة، بعد أن سُخِّر الإعلام العالمي لتشويه صورة الإسلام والمسلمين اليوم بأسوأ ما يمكن أن يكون التشويه، وركز على أن يلتقط من واقع المسلمين وحياتهم صورًا ومشاهد مشوَّهة ليقدمها على أنها هي الإسلام وأن هؤلاء هم المسلمون! في وقت انشغلت به جهات تحتل مواقع السلطة والمسؤولية ولها الإمكانات عن النهوض بواجبها في إبلاغ الدعوة وحسن عرضها أمام عيون وعقول الناس، بل إنها انتهجت من السياسات ما أتاح للمعادين المهاجمين المشوهين للإسلام من صور للممارسات والسلوكيات ما سخروه في ترويج حملتهم على الإسلام والمسلمين في الهجوم والتشويه.

لقد أصبحت ضرورة الضرورات الآن بالنسبة للدعاة إلى الله النظر بين الحين والآخر في وسائل الدعوة على صعيد التجديد والتطوير؛ لمواجهة حاجات هذا العصر المعقد ومن خلال أدواته ووسائله، فالتقدم في هذا الأمر واكتشاف المنابر المؤثرة والمواقع الجديدة التي أخذت مكانًا

قويًا في اهتمامات الناس، مع التواجد القوي على الساحة عن جدارة وقدرة؛ أصبح اليوم قضية القضايا بالنسبة للمسلمين، في عصر لا مجال فيه إلا للعاملين.

إن مهمة «البلاغ المبين» هي بالنسبة للمسلم الملتزم الصادق حياته في الدنيا ونجاته في الآخرة؛ خاصة أن دوره هو هداية الناس وإرشادهم والأخذ بأيديهم، وليس لديه على الإطلاق أي مشاعر سلبية تجاههم، بل إنه ينهض بذلك وهو يتمثل شعار الرسول الكريم ﷺ: «عسى أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا»!

ومن هنا يأتي اهتمام الدعاة بتقويم الأداء والأدوات والوسائل، مع عمل متواصل يبذل فيه كل الجهد والطاقة والوُسع؛ لإعادة المسلم إلى صورته التي جاء بها الإسلام، وفي حرص وإصرار على تقديم البرهان تلو البرهان على أن الإسلام دين الرحمة والحب والنور والحرية والعدل والإنصاف والمساواة والهداية لكافة الناس، وليس هو الإسلام الذي صنعته أو شوهته أيادي أعداء الإسلام.

***

الإخوان والدولارات والانشغال بالعمل الخلّاق(*)

هالني وساءني ما ذكره الأستاذ «علي سعيد» في حواره مع الدكتور «جابر عصفور» في أحد أعداد جريدة «القاهرة»؛ من أن الإخوان «يتلقون دعمًا سنويًّا بمئات الملايين من الدولارات»؟! وهو الأمر الذي لا أساس له من الصحة؛ فالإخوان لا يتلقون مئات الملايين لا من الدولارات ولا من الروبلات! لا سنويًّا ولا شهريًّا! وأموال الإخوان هي من جيوب الإخوان.

ولا أدري لماذا انحرف الأستاذ «علي سعيد» بكلام الدكتور «جابر عصفور» ودفع به هذا الدفع البعيد، فبينما كان الرجل بعقلية المثقف الواعي -رغم تحفظي على بعض ما ذكره- يدعو الجميع إلى «إنجاز أشياء كثيرة بالانشغال بالعمل الخلاَّق، بدلاً من التنابذ والمشاحنات»، داعيًا إلى التنافس والتسابق نحو الخير، إذا بالأستاذ «علي» يستطرد إلى وادي الأذى! في الوقت الذي يراقب فيه الآخرون ويتتبعون «المليم الأبيض»!

وأودُّ بهذا الصدد أن أوضح وأؤكد أن ما يقوم به الإخوان من أعمال خيرية وخدمية إنما هي لوجه الله الكريم؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]،

(*) جريدة «القاهرة»، العدد: ١٩٥، ٦ يناير ٢٠٠٤م.

وامتثالاً لحديث الرسول ﷺ أنَّ «خير الناس أنفعهم للناس»، كـل النـاس، دون أي تفرقة بينهم تحت أي مسمى.

وليس الأمر إحراجًا لأحد، ولا سحبًا للبساط من تحت قدم أحد، فالوطن وطننا، والناس أهلنا، وما لنا لهم، وما لهم لنا، ولو أن الظروف أطاعت حكمنا لفديناهم من المكـاره بنفوسـنا، فـأرجو أن نكـون أكثر تثبتًا وأكثر دقة؛ خاصة في الأمور المشوبة بالاتهامات والظنـون، الـتي لا يؤكدها أي دليل ولا برهان.

ولنتذكر معًا قول «أحمد فؤاد نجم»:

البلد مش عايزة قعدة

البلد عايزة المجاهدة

باللسان وبالإيدين

كلنا ومن غير معاهدة علينا دين

فهذا هو الأجدى والأنفع، وكل التوفيق للأستاذ «علي سعيد» في عمله.

***

قراءة في المشهد «الراهن» فكرًا وحركة(*)

مما لا شك فيه أن طرح أي مشروع إصلاحي لتحقيق نهضة الأمة ورسم تطلعات عظيمة لمستقبلها لن يكون نافعًا في غياب التصور القرآني والتزام نهج الرسول ﷺ.

لذلك فإن على «الحركة الإسلامية» مسؤولية هائلة للقيام بهذا الدور الذي هو في أساسه «جهد بشري»؛ لذا فمن الطبيعي أن تكون به سلبيات وأخطاء يحاول كل المخلصين تشخيصها وتحديد أسبابها ومحاولة علاجها.

ومن هنا تأتي جسامة الإقدام على القيام ببناء مشروع إسلامي قادر على استيعاب كل مكونات الحاضر، وقادر على ترجمة الفكرة الإسلامية إلى واقع معاش يقيم الإسلام؛ ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ [الشورى:١٤]، وهذا يحتاج إلى ما يمكن تسميته «بالوعي الحضاري» الذي يستوعب معطيات العصر بكل مكوناته، مع درجة عالية من التحصين القادر على بناء الشخصية الإسلامية ذات الرؤية الصائبة والمنهجية والمسؤولية الشجاعة القادرة على الرفض الإيجابي والتمييز وتقديم القدوة.

(*) جريدة «الأسبوع»، العدد: ٣٥١، ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٣م.

لا شكّ أن هناك مسافة واسعة من الغياب الحضاري لدى العالم الإسلامي يرجعها كثير من المهتمين إلى الخطأ في «تنوير» القيم الإسلامية في أخلاقيات المسلمين، والكسل في التعامل مع كل ما هو عصري، فإذا كان الله تعالى قد فطر الإنسان على التدين، وأخذ على نفسه حفظ هذا الدين؛ فإن واجب الحركة الإسلامية اليوم أن تكون بمستوى العصر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ.

لقد أصيبت العقلية الإسلامية بسبب الأخلاط المختلفة بأنواع من التشتت الفكري والسلوكي أفقدت المسلمين القدرة على فهم الوحي والقيام بمسؤوليتها تجاهه؛ حتى انتهى إلى لون من التراتيل تُتلى للتبرك والعبادة! بعيدًا عن دوْره في بناء العقل وتعمير الأرض والقيام بمسؤولية الخلافة الإنسانية عليها، صاحب ذلك انتقال «القدسية» إلى فهم البشر واجتهاداتهم في عصور معينة، وأصبح المراد القرآني وقفًا على فهمهم وعصرهم ومشكلاتهم التي ظهرت في وقتهم! وكاد هذا المفهوم يحل محل الكتاب والسنة!! وفقدت بذلك القدرة على العطاء والتجدد.

وقد أدى هذا إلى توقف الأمة عن متابعة التطورات العلمية في البعد الاجتماعي والإنساني، تلك التطورات القادرة على تشخيص الواقع وفهم مشكلاته ومواقع ضعفه ومكامن قوته.

ومن المهم هنا التسليم بأن العلوم الاجتماعية وآلياتها تطورت تطورًا كبيرًا على أيدي غير المسلمين، وبلغت درجة متقدمة في معرفة الإنسان.

لقد توقف «العقل المسلم» عن إعمال التكليف الإلهي بالسير في الأرض والتعرف على تاريخ الأمم في النهوض والسقوط، واكتشاف

آيات الله في الأنفس وفي الآفاق، وسنن التغيير الاجتماعي الـتي وردت في القرآن بشكل واضح، والتي هي أشبه ما تكون بالمعادلات الرياضية، يقول الإمام «البنا»: لا تصادموا نـواميس الكـون فإنهـا غلاَّبـة! ولكـن غالبوها واستخدموها، وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض.

فدراسة محل النص وطريقة تطبيقه وموافقته للوقـت والمكـان لم تأخـذ الاهتمام الكافي؛ فانفصل الدين عن الحياة، وانفصمت الشخصية المسلمة، فأي قيمة للنصوص تبقى إذا لم تُطبَّق علـى الواقـع؟! وكيـف يُعـرف هـذا الواقع دون دراسته والعلم به والإلمام بكل جوانبه ومتغيراته؟!

من الواضح أن هناك مدًّا إسلاميًّا تعاظم وانتشر إلى آفاق لم تكـن في الحسبان، وهذه حقيقة، والحقيقة التي يجب أن نجاورها هي أن ترشيد هذا المد ووضع البرامج والأطر الشرعية لحركته لم تكن بالمستوى الكافي؛ لأن الجماهير آمنت بالإسلام والتزمت بـه مـا اسـتطاعت؛ ولكنهـا لم تبـصَّر بالواقع وكيفية معايشته، وافتقدت النجـوم الهاديـة للتوعيـة والترشـيد؛ فلحقت بها إصابات بالغة، أتصور أنها ليست كلها بسبب أعدائها.

وإذا كانت الحركة الإسـلامية قـد أصـيبت بمعوقـات مـن داخلـها مسلَّم بها ولا ينكرها رجل رشيد، فإنها كذلك عانت كثيرًا من أعدائها في الداخل والخارج.

وانتهـى الأمـر إلى عمليـة انهيـار واسـعة تناولـت أبعـادًا كـثيرة في الشخـصية المسلمة؛ عقليًـا ونفـسيًا، حتـى تناولـت عنـد الـبعض مـصدر الاعتقاد نفسه، وظهرت شريحة كبيرة من أبنـاء العـالم الإسـلامي استرقتها

الثقافة الغربية بمعطياتها المختلفة، وتحولوا للأسف إلى أيادٍ لأصحاب تلك الثقافة يضربون بها وجوه أمتهم! ويستخفون بمعطياتها الروحية والفكرية!

فإذا كانت الثقافة تعني حسن التصرف وسلامة السلوك، والقدرة على التعايش في الأوساط البسيطة والمعقدة، والعدل في التعامل مع الأصدقاء والخصوم، وقبول الرأي الآخر وممارسة حقه في الحياة والنمو من خلال الشرعية التي تكفل كرامة الجميع، والقدرة على قراءة التاريخ وتلمس طريق المستقبل من خلال قراءة الحاضر مع الماضي.. فإذا كانت الثقافة هي كل ذلك وأكثر؛ فإن أصحاب تلك الثقافة الغربية تناقضوا مع تلك المفردات تناقضًا مريبًا، وهبطوا إلى درجة متدنية في تناول الأمور لا تبالي في استباحة الكذب والتزوير والاستبداد في الموقف إلى درجة تسفيه الرأي الآخر واتهامه وحرمانه من كلِّ حقوقه! بل والسعي إلى إلغائه!

وإذا كان التغريب صنع ذلك، فإن الحركة الإسلامية كذلك لم تخلُ من بعض القصور، ولعل من حسن حظها أن كان لها كثير من التجارب التي يمكن أن تكون مددًا لها في مستقبلها إن أحسنت النقد الذاتي، واعترفت بالخطأ (أيًا كان)، وحللته تحليلاً علميًا وموضوعيًا وجريئًا، وعملت على معرفة أسبابه وتجنُّبها، وواصلت مسيرة الصواب في التجربة، وزادت من العطاء والبذل والتضحية.

ومن المهم أيضًا الفصل بين المبادئ والشخصيات في تقييم مسيرة الحركة الإسلامية؛ لأن الشخص مهما كان متجردًا فإنه لابد أن تترك ذاته وتركيبته العقلية والنفسية لمسات على مسيرة حركته، ومن هنا

كانت ضرورة إخضاع الممارسة للنقد حتى لا تنسحب أخطاء الرجال على المبادئ؛ وحتى لا تسمَّى الأشياء بغير أسمائها، كأن يختلط الأمر مثلاً بين المحنة والخطأ، فالمحنة هي «ألم الطريق الصحيح»، والخطأ هو «ألم الطريق غير الصحيح»، ولا تغطى الأخطاء على أنها إرادة الله! وبالتالي فلا حاجة إلى مراجعتها لأنه لا دخل لنا فيها!!

هذه الصفة ضرورية للمهمة العظيمة الملقاة على عاتق الحركة الإسلامية أمام هذا الكم الهائل من التخلف والفساد والاختراقات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها العالم الإسلامي، هذه المهمة التي تعاظمت بحد الفشل الذريع الذي مُنيت به الحركات الإصلاحية «القومية»، والتي تسلمت القيادة الفكرية والسياسية في فترة الاستقلال الوطني.

فنفس العلل ما زالت تعمل في جسد العالم الإسلامي حضاريًّا وسياسيًّا، وإمكانياته الهائلة لا تزال تعاني من النهب والتعطيل والتضييع.

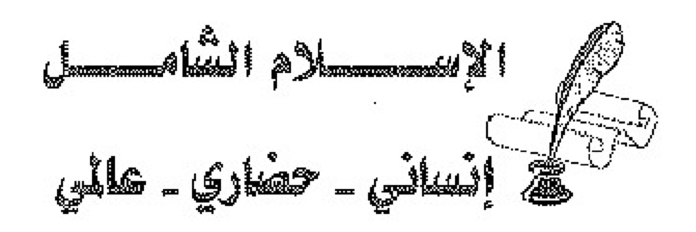
من هنا كان عظم المسؤولية وجسامة العبء الذي ينتظر الحركة الإسلامية لتقوم بدورها في ترميم التشويه والخراب، وإعادة البناء بحذر وتؤدة بالغين، ووعي كامل بمختلف الظروف المحيطة داخليًّا وخارجيًّا.

يُنتظر من الحركة الإسلامية تحديد الموقف من كثير من «الأورام» الثقافية والسياسية التي نمت وترعرعت في كثير من المرافق المختلفة في العالم الإسلامي، وسَطَت على مراكز قوية ومؤثرة، وأصبحت تشكل خطورة كبيرة على الدين والوطن، وهذه المهمة بالذات هي التحدي الحقيقي للحركة الإسلامية، وتفرض عليها مسؤوليات غاية في الأهمية

في ميادين الحياة المختلفة، ولا يفوت أيَّ متابع للحركة الإسلامية أن يدرك أن هناك نماذج طفيلية طفت على السطح، واستطاعت أن تتحرك في الحقل الإسلامي من خلال مصالحها الخاصة أو رؤيتها القاصرة، فشكلت عائقًا في مسيرة الحركة.

ينتظر أيضًا من الحركة الإسلامية أن تكون على مستوى العصر بكل إنجازاته العلمية وأدواته التقنية في العرض والمناقشة والجدال، وأن تكون على مستوى الإسلام في فهم الأحداث وتحليلها ومعالجتها.

***



الإســـلام الشامـــل
إنساني - حضاري - عالمي

(١)

إنساني

من حيث اعتباره للإنسان مركز الوجود على الأرض؛ سجود له من الملائكة، هو مخلوق الله المختار وخليفته في الأرض، مُكرَّم في البر والبحر، ومن حيث اعتباره للإنسان مخلوقًا متفردًا؛ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾... الآية [الحجر:٢٩]، فلا هو من الملائكة الأطهار ولا هو من الشياطين الأشرار، فيه من أشواق الروح ما فيه، وفيه من التراب والطين ما فيه.

فكانت تعاليم هذا الإسلام وتكاليفه، أوامره ونواهيه.. «إنسانية الطابع» من أولها لآخرها، إنْ في الاعتقاد ومكوناته الإيمانية، أو في العبادات نسكًا ومنهاجًا، أو في المعاملات نصًّا وتشريعًا، فهو دين «إنساني» من حيث توافقه التام مع الإنسان عقلاً ووجدانًا، جسدًا وروحًا، ومن حيث توافق الإنسان التام معه في «وضوح» الاعتقاد و«بساطة» العبادات و«واقعية» المعاملات.

حضاري

من حيث أنه يعتبر «المجتمع والدولة» ضرورة حتمية لإقامة الدين، فالجانب الفردي في الإسلام يكاد يكون محصورًا في أمور معدودة

ومحدودة، والجانب الجماعي هو الأغلب في التكليف والتطبيق، واضح ذلك في العبادات وأكثر وضوحًا في المعاملات، والمجتمع والدولة هما بؤرة أي حضارة تتكاثف حولها النظم والتشريعات والقيم والأخلاقيات ووسائل العيش والمعاملات، فيقوم الكيان الحضاري وهو في الإسلام صُلبًا منيعًا على الأرض موصول الصلة بالسماء.

عالمي

من حيث إن نبيه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وإن رسالته موجهة للعالمين، ومن حيث إنسانية تكاليفه وأوامره ونواهيه؛ فهي في طبيعتها تتجاوز التاريخ والجغرافيا، وتستقر مع الإنسان أينما استقر وكيفما استقر توافقًا وتطورًا.

(٢)

قصدت مما ذكرت أولاً أن أؤكد على طبيعة هذه الدين بتمامه وكماله، كما جاء به محمد ﷺ، وكما نؤمن ونعتقد، وحقيقة الأمر أنني لا أجدني مستريحًا لإلحاق صفات بـ«الإسلام» هي في واقع الأمر مكون من مكوناته وجزء من كلياته؛ فمصطلح «الإسلام السياسي» على شيوعه وانتشاره على ألسنة كثير من المثقفين والدارسين فيه افتراء وتجاوز على طبيعة الإسلام كدين ومنهج، وفيه إخلال في النظر إلى المشروع الإسلامي للإصلاح والنهضة في أي مكان، ناهيك عن عدم قابلية الإسلام للتجزيء والتفكيك؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨]، فالمشروع الإسلامي كما أفهمه:

تربويُّ البُعد: فيتمثل في صياغة الفرد عقليًّا بالفكرة الواضحة، ووجدانيًّا بالعقيدة الراسخة.

وأخلاقيُّ البُعد: يوجه الحياة وينيرها بالعبادة الصحيحة مع الله والتعامل السوي مع الناس.

وسياسيُّ البُعد: يتمثل في إحياء معنى المشاركة وتعبئة الناس دومًا لإصلاح أحوالهم؛ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

واجتماعيُّ البُعد: بالعمل على الحد من الفقر والمرض والجهل والرذيلة، ومن خلال إحياء معنى العمل الأهلي التطوعي أفرادًا ومؤسسات.

واقتصاديُّ البُعد: بالعمل على إحياء معنى المشاركة في تنمية المجتمع وقدراته، وتخليصه من كل أشكال التبعية.

ودعَويُّ البُعد: بشرح تعاليم الإسلام شرحًا يردُّ عنه غلوَّ المُغالين وتفريط المفرطين.

وفكْريُّ البُعد: لتصحيح المفاهيم الخاطئة فهمًا وتصورًا عن الإسلام، عند المسلمين وغير المسلمين على السواء.

(٣)

بعد قراءتي لورقة الأخ الدكتور «عبد الله بدوي» ازداد إيماني ويقيني بعظمة هذا الدين وشموله، وتجاوزه لمعنى الزمان والمكان.. أكثر وأكثر.

فعلى تباعد المسافة واللغة بيننا؛ إلا أن درجة التقارب بين التصور المبدئي الذي طرحه سيادته، والتصور المبدئي الذي كنت قد طرحته بعنوان «المفهوم الإسلامي للإصلاح الشامل».. تجعلهما كأنهما قد خرجا من مشكاة واحدة، وهذا صحيح، وهذا في ذاته أقوى دليل على عالمية هذا الدين، واستيعابه الكامل للفوارق الطبيعية بين البشر.

(٤)

أنا ممن يؤمنون بوحدة التراث الإنساني وشيوعه بين البشر أجمعين، وأن الحضارات تراكم بعضه فوق بعض، وهي في نهاية الأمر بناء إنساني مشترك، اشترك ويشترك في بنائه مفكرون ومجتهدون وعلماء وباحثون من سائر الأعراق من الشعوب والبلدان، فلا توجد حضارة تبدأ من الصفر، فهي تبني على ما قد بناه السابقون ويضيف إليه اللاحقون.

في العلوم الطبية الهائلة التطور الآن في العالم ستجد بصمات وآثار جهد وبحث «ابن سينا» و«الرازي»، كما كانت بصمات وآثار جهد وبحث «جالينوس» و«أبقراط» في العلوم الطبية أيام المجد الإسلامي، البدايات الأولى لـ«ابن الهيثم» في اكتشاف سرعة الضوء كانت المقدمة الضرورية التي تأسس عليها علم الاتصالات، الذي تنعم به الحضارة الإنسانية الآن.

الأمر نفسه على مستوى العلوم الإنسانية؛ من اجتماع وفلسفة وآداب، ومن يريد أن يؤرخ للحضارة الإنسانية في عصرنا هذا من أول الثورة الفرنسية واتفاقية «فرساي» فهو مخطئ وغير أمين.

وعلى هذا أجدني مشفقًا على من يتحدثون عن «صراع الحضارات»، فإلى جانب أن هذا الطرح نوع من أنواع البؤس الفكري والثقافي، فإنهم يخالفون منطق الأشياء ويجحدون التاريخ، وإذا كان هذا الطرح قد وجد من يروّج له استنادًا إلى ثقافة البقاء للأقوى وقصة «الرجل الأبيض» في «أمريكا»، فإن بني البشر جميعًا يرفضونه وسيقاومونه بكل أشكال المقاومة.

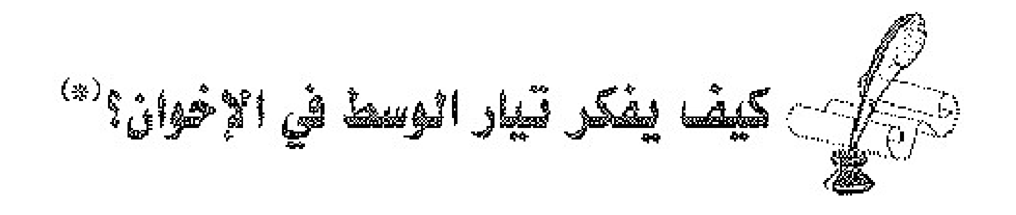
(٥)

النموذج الإسلامي للدولة العصرية الذي ننشده ونتمناه ونعمل له جميعًا، لابد في الأساس أن يكون نابعًا من إرادة شعبية عارمة، ولابد أن يكون تدريجيًا رفيقًا في الوصول إليه وتحقيقه، فهذه هي السنن والقوانين التي وضعها الخالق ﷻ لمفهوم «التغيير» و«البناء».

لابد أيضًا من تعميق معنى «الحرية» التي يدعي البعض أنها ليست موجودة في التراث السياسي الإسلامي، متناسين موقف عمر بن الخطاب ﷺ في تقريره للحقيقة الخالدة أن «الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»، وهي في نهاية الأمر حق إنساني أصيل لا يملك بشر لبشر أن يمنعه أو يمنحه.

ولابد أيضًا من تعميق معنى «المشاركة» حتى نستطيع أن نتغلب على رواسب الماضي؛ من إقصاء وعزل للمجتمعات عن الدراية والمعرفة والمشاركة في إدارة شؤون حياتهم، حتى تغدو آمال الناس في ذاتهم وإرادتهم وما يؤمنون به من قيم ومبادئ محققةً على أرض الواقع.

***



كيف يفكر تيار الوسط في الإخوان؟(*)

إيماءً إلى ما نُشر بجريدة «القاهرة» ١٦/ ٣ / ٢٠٠٤م تحت عنوان: «تيار الوسط داخل الإخوان يدعو لحل الجماعة»! أودُّ إيضاح بعض النقاط المهمة:

١ -ليس صحيحًا على الإطلاق ما ذُكر من أن هناك من داخل «الإخوان» من يدعو إلى «حل» و«تصفية» جماعة «الإخوان المسلمين»؛ لسبب أتصور أنه بسيط، وهو أن هذه الجماعة العظيمة ليست مِلكًا لأحد بعينه أو جيل بعينه؛ بل هي ملك للأمة كلها، وهي مفخرة لكل مصري وعربي بفكرها وتاريخها وعلمائها وأدبائها ومفكريها.

وكلمات مثل «حل» و«تصفية» في إطار حديث عام عن تطوير العمل السياسي وتجديد آلياته، والبحث عن الأشكال والأطر القانونية واللائحية له.. أرى أنها غير مقبولة وغير لائقة، ولم أعرف عن نفسي ولم يعرف أحد عني أن لي قلبين في جوفي! وما أعلنه هو ما أؤمن به، وما أؤمن به هو ما أعلنه.

٢-ما ذُكر عن الاحتكام للشعب في قبوله ورفضه للشريعة هو من قبيل «الافتراض الجدلي»؛ تأكيدًا لمبدأ «الإرادة الحرة» التي بها

(*) جريدة «القاهرة»، العدد: ٢٠٧، ٣٠ مارس ٢٠٠٤م.

يكون التكليف في الإسلام، وتأكيدًا لمبدأ «حرية المشيئة»؛ ذلك الحق الذي منحه الله للإنسان، ولا يمكن أن يتصور أي دارس مبتدئ لعلم الاجتماع أو علم نفس الشعوب أن الشعب المصري من الممكن أن يأخذ موقفًا رافضًا للشريعة تحت أي ظرف، والتاريخ الحديث والقديم يتبئ عن هذه البديهية، والتي هي أوضح ما تكون في الشعب المصري تحديدًا، الذي لا يعنيه من الدنيا إلا «المدنة والبحر»! أي دينه الذي يقيمه في حياته ويسعى به للخلود في الجنة، ونيله الذي يجري أمامه ويروي أرضه وأرض أجداده!

كون أن هناك ترتيبًا للأولويات في نطاق الأهم والمهم والأقل أهمية، ومن حيث الوصول إلى حالة «التوافق العام» بين الشريعة والواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمع.. فهذا من صميم المسألة الفقهية وأصولها العلمية، ولابد من تهيئة البيئة التي تطبق فيها الشريعة، وإلا فإنه الحمق والجهل والظلم للشريعة وللمجتمع في آن واحد.

٣-التجربة التركية التي يتحدث كثيرون عنها وعن مشابهتها، تجربة شديدة الخصوصية من حيث مكوناتها؛ الجغرافية والتاريخية والدولية:

* فحزب «العدالة والتنمية» يرى في الامتداد الأوروبي «مصلحة قومية» على المستوى الاقتصادي والسياسي والجغرافي والاستراتيجي، وهو اختيار نابع من «رؤية أهل مكة»! لا يستطيع المراقب البعيد أن يحكم عليه حكمًا منصفًا، وهو أمر

أبعد ما يمكن مشابهته وقياسه على «مصر»؛ التي هي مصلحتها القومية «عربية» أولاً وثانيًا وعاشرًا.

* لم يأت يوم على «مصر» -ولن يأتي إن شاء الله- يُعادى فيه الدين ويحادُّ، كما حدث في تركيا التي نفى عنها البعض حتى صفة العلمانية! كونها معادية للدين، والعلمانية تقف من الدين عند نقطة الصفر.

* المؤسسة العسكرية في تركيا لها مواقفها ومحدداتها المعروفة للجميع، وهو الأمر البعيد كل البعد عن الحال في «مصر»، فالمؤسسة العسكرية في «مصر» هي مدرسة الرجال الأقوياء الأمناء على دينهم ووطنهم.

وبالتالي فالحديث المكرور عن «التجربة التركية» في هذا السياق غير ذي موضوع، ولا محل له من الإعراب على الإطلاق، وليست له أي قيمة علمية أو بحثية.

٤-ليست هناك أفكار أو نوايا معلنة وأخرى مستترة، فكل ما يتمناه أي طامح للتطوير والتجديد داخل جماعة «الإخوان المسلمين» ذكره فضيلة المرشد الأستاذ «محمد مهدي عاكف» في المبادرة التي أعلنها، والحديث عن «خطاب موجَّه للجماهير وخطاب موجه للنخبة، والإبقاء على خطاب متشدد وعدم معارضة خطاب متجدد..»، كل هذه حكايات وقصص يحب بعض الكُتَّاب «الدندنة» بها، وواقع الحال أن «الإخوان» لا يعرفون هذه الدهاليز ولا يجيدون هذه المفردات؛ لسبب واضح هو أن «الإخوان» ليس لديهم إلا خطاب واحد؛ هو الخطاب الإسلامي.

الروح العامة التي تشيع في كل سطر من السطور المنشورة تشي بأن الإسلاميين في حالة اتهام، وأنهم يبرئون ويدفعون عن أنفسهم شبهة السعي إلى صبغة المجتمع بالصبغة الإسلامية ممالأة ومداهنة، وهو ما نجلُّ أنفسنا عنه تمامًا، فنحن نتعبد إلى الله بفعل الخير؛ الذي هو الإصلاح الشامل لكل مناحي الدنيا وفق ما نؤمن به ونراه صحيحًا وصالحًا لديننا ودنيانا.

***

المتحدث باسم «الإخوان المسلمين» يردُّ على «محمود أمين العالم»(*)

ما الدليل الذي تريده على مناصرتنا للحريات؟!

الأستاذ «محمود أمين العالم» مفكر يساري معاصر، نعرف فيه التجرد والتضحية من أجل ما يؤمن به من أفكار ومعتقدات، كما أن كتاباته في النقد الأدبي تجعلنا نشعر بالأسف على خسارة عبقرية نقدية متوهجة، ولعله يقارب في هذا المجال الأديب الشهيد «سيد قطب» و«عبد القادر القط» رحمهما الله، ولكنها السياسة والأيديولوجيات التي قد تأخذ الإنسان بعيدًا عن مواهبه!

الأستاذ «محمود» أبى إلا أن «يزعلنا»! منه في حواره الأخير مع الأستاذ «سعيد شعيب» في جريدة «العربي»، فهو يريد أن يستبعدنا من جبهة وطنية، والأخطر من هذا أن يطالبنا كـ«إخوان مسلمين» بتقديم الدليل على أننا مع الحريات وتداول السلطة والردِّ على الفكر بالفكر.

وأنا أسأل بدوري الأستاذ «محمود»: ما طبيعة هذا الدليل «المطلوب»؟! ووفق أي نظرية من نظريات النقاش والجدل يطلب طلبًا كهذا؟! هل يملك أي إنسان منا إلا أن يعلن مبادئه وأفكاره وفي نهاية

(*) جريدة «العربي»، العدد: ٨٨٤، ٩ نوفمبر ٢٠٠٣م.

الأمـر: ﴿إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]؟! هكـذا يأمرنا القرآن الكريم.

والأمر الأكثر غرابة قوله: «إننا ننتقل نقلة مخالفـة لأفكارنـا»! فهـل الأستاذ «محمود العالم» أكثر وفاء وأمانة ومعرفة بأفكارنا من أنفـسنا؟!! إنه التفتيش على مكنونـات الـضمائر، وأقـول: إن المتنقلين يعـرفهم الأستاذ «محمود» جيدًا!

لقد شكرت للأستاذ «صنع الله إبراهيم» ثناءه علـى حـواري مـع «العربي»، ووجدت في تعليقه قدرًا كبيرًا من الإنصاف والموضوعية.

وأكرر ما سبق وذكرته:

- إن الخطاب الإسلامي خطاب إصلاحي بشري، ولـيس خطابًـا مقدَّسًا.
- إننا لا نرفض الغرب رفضًا مطلقًا؛ ولكن نرفض هيمنته واستكباره.
- المواطن هو أساس الوجـود في المجتمـع داخـل إطـار ديمقراطـي يحترم قيم المجتمع ومبادئه الأساسية.
- الجماهير هي الحَكَم بين كل الاتجاهات من خلال انتخابات حـرة نزيهة، وبالنسبة لتجربة النقابات التي يعتبرهـا الـبعض مـن أكمـل التجارب الديمقراطية خلال فترة وجـود التيـار الإسـلامي، أدعـو الجميع إلى دراستها ومراجعتها؛ سواء علـى مستوى الأداء المهـني والإداري، أو على المستوى الديمقراطي.

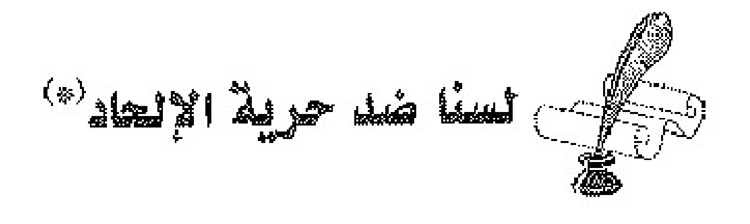
خـلال الأيـام الماضـية، وفي خـضم الجـدل المحتـدم حـول الحـوار الوطني، كانت الـساحة الـسياسية والإعلاميـة أشـبه مـا تكـون بـسوق

الزمَّارين! حتى ازدحمت الطرق بمن جاء -أو جِيء بـه- مـن منتجعـه، ومن يضرب بمصالح الوطن العليا عـرض الحـائط، ومـن يبكـي أيامـه المحتضرة ويريد أن يقلب المائدة على الجميع! ومـن يريـد أن يطفـئ أي شعاع ضوء.

وأنا أقول للجميع: إن «فيليب» على الأبواب! «فيليـب» يعربـد في «فلسطين» و«العـراق» ويعبـث في أمننـا القـومي! «فيليـب» يريـد أن «يلغوص»! في عقولنا وثقافتنا وتراثنا وتاريخنا، الأمـر الـذي لا يحتمـل عند أي وطني شريف إلا التعاون والتواجد والاستقواء بعضنا ببعض، وإلقاء تفاهات الأمور جانبًا، بل إلقائهـا في «سـابع أرض»؛ كـل ذلـك حفاظًا على الوطن الذي يحملنا جميعًا، بدلاً من أن يغـرق بنـا جميعًـا في بحار الهيمنة والاستكبار الأمريكي.

لا يراودني شك في أن كل مصري يدرك حجـم الكارثـة المحيقـة بالوطن، والتي تمتد في كل مناحي حياتنا، لقد انتزعت القِلة المستغلة منا الروح، والواقع مرعب ومخيف، يـا رب: ﴿إِنْ أُرِيـدُ إِلاَّ الإِصْـلاَحَ مَـا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

***



لسنا ضد حرية الإلحاد(*)

وجدت نفسي مضطرًا لأن أقول للدكتور «عبد المنعم أبو الفتوح» عضو مكتب الإرشاد في جماعة «الإخوان المسلمين» في نهاية الحوار: إنني أخشى أن يكون كل ما قاله تعبيرًا عن آرائه الشخصية، وليس تعبيرًا عن «الإخوان»! فأجابني بأنه مؤيد تمامًا لحرية التعبير حتى لو كانت الإلحاد، وأنهم ضد كافة أشكال المصادرة والمنع والحجر على الحريات، وأنهم -أي «الإخوان»- مع دولة مدنية وليست دينية، يتم فيها تداول للسلطة بين كافة التيارات، وأنهم لا يرفضون أن يكون رئيس جمهورية «مصر» العربية مسيحيًا، ولا يقبلون أن يتحدث أحد باسم الله سبحانه وتعالى، وأنهم لا يحتكرون الإسلام و.. و.. وغير ذلك الكثير.

ووجدت نفسي مضطرًا للمرة الثانية أن أقول له: ليس هناك ضمانة بأن تفعلوا ذلك لو وصلتم إلى الحكم! فردَّ الرجل الذي يشغل -موقع أمين مساعد اتحاد الأطباء العرب-: ليس لنا تجربة في الحكم حتى تحكم علينا بشكل قاطع!

وبالطبع عنده حق!

(*) جريدة «العربي»، العدد ٨٧٨، ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٣م.

وهذا نص الحوار الذي يُنشر في الوقت نفسه بمجلة «الصدى» الإماراتية:

* لديكم التباس واضح في مفهومكم للثقافة والفنون.

➢ الذين يتحدثون عن هذا الالتباس محقّون، ويعود سببه إلى طرفين: الأول هم المتطرفون من العلمانيين الذين ينزعون إلى وضع الإسلام دائمًا في مواجهة الفن والإبداع والثقافة، والطرف الثاني هم المتطرفون الإسلاميون الذين دأبوا على التعامل مع الفكر والثقافة والفنون على أنها من المحرّمات، وفي كل تيار فكري أو سياسي -كما تعرف- يوجد متطرفون، وهم ليسوا النسبة الغالبة أو الموجهة أو المسيطرة.

* ولكن حتى التيار الغالب، وليس المتطرفون من الإخوان أو عموم تيار الإسلام السياسي.. لم يبذل أي جهد لوضع أسس وقواعد نقدية للتعامل مع الأعمال الإبداعية، رغم أن هذه معارك تخوضونها بشكل دائم!

➢ الذي فعله النائب السابق د. جمال حشمت -فكّ الله أسره- في الروايات الثلاث، وما فعله النائب الحالي في كتاب «الوصايا في عشق النساء».. لا علاقة له بالثقافة والفنون، فانتقادهما على وجه التحديد هو لإنفاق المال العام في غير موضعه، فأنا من الممكن أن أفهم أن تصدر وزارة الثقافة رواية لشاب من أجل تشجيعه، أو أن تصدر رواية ليس عليها خلاف؛ لأن هذه أموال عامة، أما الأعمال المختلف عليها فمن حق صاحبها أن ينشرها على نفقته أو على

نفقة ناشر خاص، ويقول فيها ما يشاء؛ حتى لو كان يدعو إلى الإلحاد! وفي هذه الحالة ليس من حق أحد أن يطالب بمصادرته.

إذًا الخلاف بيننا وبين وزارة الثقافة هو على سوء استخدام المال العام فقط لا غير.

* ولكنك لم تقل: ما هو المعيار الذي تستندون عليه للحكم على عمل فني أو إبداعي إذا كان صالحًا أم لا من وجهة نظركم.

➢ المعيار بسيط جدًّا؛ وهو: إذا كنا دولة فقيرة فإن الدعم يجب أن يذهب إلى من يحتاج إليه، فهل من المنطقي أن تعالج وزارة الصحة الأثرياء على نفقتها؟!!

وبنفس المنطق: فإن وزارة الثقافة دورها هو تدعيم الشباب، فالدعم لا يحتاج إليه «أحمد الشهاوي» ولا «حيدر حيدر» ولا حتى «محمد حسنين هيكل»، مع كامل احترامي لهم.

* ولكنك تنسى أن مشروع «مكتبة الأسرة» هدفه هو تكوين مكتبة متنوعة للبيت المصري، وبالتالي تقديم كافة مجالات الفكر والثقافة والإبداع لكل التيارات ولكل الأجيال.

➢ «مكتبة الأسرة» هدفها تكوين مكتبة بسعر رخيص؛ لتثقيف المواطن البسيط، وتشجيع الشباب المبدع الصغير، ولا يجب أن نخلط بين هذا الهدف وتشجيع بعض الناس؛ لأن هذا يقتضي مني تمويلاً معينًا يتناقض مع هدف «مكتبة الأسرة».

* اسمح لي، أنا لا أفهم ما تقصده!

➢ إذا كان هدف «مكتبة الأسرة» أن تقدم جميع فروع الفنون والعلوم، فمن الطبيعي أن تكون أولوياتي هي تقديم الكبار، فلا يجب أن

أستخدم هذا الهدف في تشجيع فلان أو (علأن)؛ أي لا أجعل بعض الناس تتعلم الحلاقة بفلوس اليتامى!

* إذا طبعت «مكتبة الأسرة» لـ«سعيد شعيب» فما وجه اعتراضك؟

➢ لا اعتراض لي على «سعيد شعيب» أو «أحمد الشهاوي» كأفراد، لكن -كما قلت- لابد أن تدعم الدولة المتفق عليه، وليس شيئًا محل خلاف، وأنا لا أريد خلط الدعم بالإبداع، الإبداع معناه أنك تفكر كيفما تشاء حتى لو كنت ملحدًا، فلن أفرض عليك شيئًا، ولكني كدولة لن أدعمك وأنفق عليك؛ لأن الاتجاه العام للدولة والنظام يحكمه احترام الأديان وتقديسها؛ أي لا يجب أن أستخدم المال العام في نشر ما يرفضه الرأي العام، ولكن من حق «سعيد شعيب» وغيره أن ينشر على نفقته ما يريد، وليس من حقي الدعوة إلى مصادرته.

* إذن أنت ضد طبع أي كتب على نفقة الدولة؛ لأنها من وجهة نظرك...

➢ مقاطِعًا: ليس من وجهة نظري، ولكن من وجهة النظر المصرية.

* لا داعي لاستخدام كلمات من نوع «مصر» و«المصريين»! فالحكومة أيضًا تستخدمها لتمرير ما تريد! وكذلك المعارضة! فـ«مصر» مثل أي شعب في الدنيا؛ فيه توجهات وتيارات وأفكار مختلفة.

➢ بالطبع أنا ضد التعميم، ولست مع الذي يحتمي ويتخندق وراء تعبيرات مثل «مصر»، لكن لو قمنا باستفتاء بين أفراد الشعب المصري؛ هل سيحدث اختلاف على تقديس الأديان، سواء كان الإنجيل أو القرآن؟! هل يختلف مسيحي مصري أو مسلم مصري على عدم تجريح الأديان؟! أنا أتكلم في قضايا أساسية وليست وجهة نظري أو وجهة نظرك، فهذا من الممكن أن يتم في مسائل تفصيلية؛ فهل هناك مصري مخلص يرفض الاستقلال ويقبل الاحتلال؟! هل هناك من يفضل الاحتلال؟!

* نعم.. هناك من يراه -وهم قلة بالطبع- الحل الوحيد لمواجهة الاستبداد المحلي!!

➢ في كل مجتمع ستجد «كام مخ طاقق»! وأنا أقصد في كلامي المبادئ الأصلية التي لا يختلف عليها أحد، ولا أقصد طبعًا أن (١٠٠ %) متفقون عليها، فليس منطقيًا أن تسيء وتجرح في الأديان وتقول: إن هذه حرية إبداع! هل تترك المساحة الكبيرة جدًا للإبداع وتدخل في الإساءة، وعندما أقول لك: إن هذا لا يصح احترامًا لمشاعر شعبك ومقدساته؛ تقول: إنني أطالب بمصادرتك؟!!

* ولكن النائب «مصطفى محمد مصطفى» اعترف أنه لم يقرأ الكتاب، وبالتالي كيف يمكنه أن يحكم عليه؟!

➢ قال في جريدة «القاهرة»: إنه قرأه.

* وقال من قبل للصحافة: إنه لم يقرأه، ولكن على أية حال القرآن الكريم تناول الحديث عن الجنس في قصة سيدنا «يوسف»

مثلاً، وكذلك الأحاديث النبوية والقدسية وكتابات الفقهاء العظام تناولته؛ مثل «ابن حزم» و«ابن تيمية».. وغيرهما، وتحدثوا جميعًا في الغرام والحب والجنس، وكذلك الشعراء العرب؛ بما فيهم «حسان بن ثابت» شاعر الرسول ﷺ؛ ولكن عندما يكتب أحد أي كلام من هذا النوع تعترضون!!

➢ وأنا أقول لك: إن هذه الكتابات كانت فيها ألفاظ صريحة، ولكنك تتحدث معي وكأنني ضد ما كتبه «أحمد الشهاوي»، فأنا لم أقرأه، وحديثي معك حول قواعد عامة؛ لأنني حتى أنتقد «الشهاوي» أو غيره لابد من فحص دقيق، فهذه المسائل لا يجب أن تتم ببساطة؛ لأنها متعلقة بطعن إنسان في دينه، وأقول رأيي وتقول رأيك؛ لأنني لست مع مصادرة رأي أو فكر أحد، ولكن لابد لنا كمجتمع ودولة أن نرفض تجريح المقدسات، ولا أقصد «الشهاوي» طبعًا؛ لأنني -كما قلت لك- لم أقرأه، وأنا أتحدث عن قواعد عامة.

* كلامك متناقض! فأنت تقول: لابد لنا أن نرفض كمجتمع ما نتصور أنه تجريح للأديان، والجملة التي بعدها تقول: إنك مع أن ينشر كل واحد رأيه حتى لو كان إلحادًا ونرد عليه بكتاب ولا نصادره!!

➢ أنا لست متناقضًا، أنا ضد أن تجتمع ونتبنى مثلاً كتابًا يسبُّ القرآن الكريم ويكذّب سيدنا «محمد» ﷺ، وندعمه ونصرف عليه من المال العام، وفي الوقت نفسه أنا لست ضد أن يطبع وينشر أي صاحب رأي -مهما كان- كتابه ونرد عليه بكتاب ومقالة؛ ولذلك أنا لم أكن

سعيدًا بما حدث مع «نصر حامد أبو زيد» والتفريق بينه وبين زوجته بسبب آرائه التي اختلف معها البعض، وكان يجب أن نردَّ عليه ونناقشه بندوات وكتب ومقالات، وهذا كان منهج الرسول ﷺ مع الزنادقة، وهم كانوا موجودين طوال التاريخ الإسلامي، أما مسألة الكتابة شعرًا أو بأي وسيلة في الغزل والحب والجنس فلا اعتراض إطلاقًا، طالما أن صاحبه لا يهدف إلى إثارة الغرائز ويكتب بطريقة جميلة، ولكنك سترد عليَّ بمن له صلاحية أن يحكم.

* طبعًا، ولكن قبل ذلك أنت تطالب الدولة بأن تنشر ما تراه صالحًا من وجهة نظرك، وأنا مثلك أطالبها بأن تنشر ما أراه صالحًا، فلماذا تريدها أن تنشر ما تريده أنت فقط والمفترض أن تنشر لكل التيارات والتوجهات؟!! ففي الضجة التي أثيرت على رواية «وليمة لأعشاب البحر» أنتم رأيتم أنها تسيء للإسلام، ورأى آخرون العكس، والأمر نفسه حدث مع كتاب «الشهاوي».

➢ المعيار هو أصول لا نختلف عليها، وضربت لك أمثلة، والمشكلة أننا أحيانًا نتوسع في هذه الأصول ونضيق على الناس حياتها، أنا أتكلم في مسائل أصلية؛ هي عدم تجريح المقدسات الإسلامية والمسيحية، ولو أردت أن تكتب في الجنس والحب والغزل أنت حرٌّ، وهناك من يقول: إن هذا يخالف الأخلاق، وأنا أقول: إن هذا حقه، وهذا لا يعني بالضرورة أنني أوافقه، وبالتالي يمكن أن أرد عليه.

* أنا أقصد أن النماذج التي تقولون: إنها تجرح المقدسات، هناك من يقول عكس رأيكم؛ فلماذا يكون رأيكم وحدكم هو الصواب؟

➢ في هذه الحالة يكون القضاء هو الفيصل، فإذا وُجدت قصة مثلاً تصطدم بالمبادئ الأساسية للمجتمع بما فيها الدين، ويدعو صاحبها مثلاً إلى أن تحتل «إسرائيل» «مصر»! فأنا ضد أن تتخذ الدولة والسلطة التنفيذية ضده أي إجراء؛ سواء كان حبسًا أو مصادرة، وعلينا أن نلجأ إلى القضاء ونرضى بحكمه؛ فليس أمامنا غيره في هذه الحالة.

* المثل الشهير المأخوذ من القرآن الكريم: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ﴾ دون ذكر باقي الآية الكريمة ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء:٤٣]؛ أي الاجتزاء الذي لو تم مع آيات القرآن الكريم فسيفسد معناها، وعموم تيار الإسلام السياسي يفعل ذلك مع الأعمال الفنية والإبداعية؛ فيأخذون جملة أو اثنتين ويقولون: إن بها إساءة للأديان، ويُكفِّرون أصحابها! في حين أنه يجب النظر إلى الرسالة الإجمالية والنهائية للعمل الإبداعي.

➢ بل سأقول لك: إن القرآن الكريم جاء بكلام الكفار وآرائهم.. وهذا الاجتزاء خطر وخطأ، وأنا معك في أن هذا الاتهام صحيح.

* د. «محمد عباس» فعل ذلك في رواية «وليمة لأعشاب البحر»، والنائب «مصطفى محمد مصطفى» اجتزأ كلامًا من كتاب «الوصايا»، بل وادعى كلامًا لم يكن موجودًا في الكتاب! بما فيها حديث نبوي مغلوط، واستخدم هو والدكتور «عبد العظيم المطعني» كلامًا من نوع «الفسق» و«الفجور» وغيرها! فلماذا يتم استخدام هذه الأساليب في معارك المفترض أنها فكرية؟!!

➢ أنا ضد هذا تمامًا؛ فلا يجوز وأنا أختلف معك أن أستخدم هذه التعبيرات، فهذا مرفوض، وأعتبره «إرهابًا»! ولو كنت موضوعيًّا ورأيت أن رأيك خطأ أرد بمنتهى الأدب، فاستخدام هذه التعبيرات سفالة وقلة أدب! لا أحد منا يملك مفتاح الجنة، سواء كان من «الإخوان» أو حتى شيخ الأزهر، ولعل من قيل: إنه فاسق وفاجر.. يكون أرضى عند الله سبحانه وتعالى من الذين اتهموه ومني ومن كثير من الناس! وربما من اتهموه يكونون أشد فسقًا! والله أعلم، فبأي حق نتهم الناس؟!

* إذًا أنت مع الاحتكام للحوار دون تراشق بالتكفير أو غيره؛ فلماذا تدعو إلى اللجوء إلى القضاء، والذي يجب أن نبعده عن قضايا فكرية، الاختلاف فيها أمر طبيعي؟

➢ أنا لم أقل ذلك، وقصدت أنه عندما يجد مواطن قصة أو مقالة يرى من وجهة نظره أنها تسيء إلى الأديان فليس من حقه أن يستعدي الحكومة عليها، ولا أن يطالب بمصادرتها، ولا أن يقتل صاحبها؛ (زي اللي قتلوا «فرج فودة»)، أو الذين طعنوا «نجيب محفوظ»؛ ولأنه لن يستطيع الرد بالفكر، فأنا مع أن يلجأ إلى القضاء؛ فليس من المنطقي أن تقول له: «اخبط دماغك في الحيطة»! أو تقول له: «من كتب القصة حرٌّ»! فهو لن يقبل هذا الكلام، وخاصة لو كان متطرفًا، وهذه ليست دعوة لكل من لا يعجبه شيء أن (يجرجر) الناس إلى المحاكم!

* إذًا أنت مع أن يكون الحوار هو الوسيلة الوحيدة؟

➢ أنا أتكلم عن حالة محددة؛ فكما قلت لك: كل التيارات فيها متطرفون، وإذا وجد هذا المتطرف شيئًا لا يعجبه فعليه أن يلجأ إلى القضاء بدلاً من القتل والعنف.

* هناك تيارات سياسية في «مصر» قد يعتبرها بعض المتطرفين كافرة؛ فهل أنت مع أن يتم محاربتهم في القضاء؛ ومنهم مثلاً بعض الشيوعيين، رغم أنهم قوة سياسية تقف معكم في خندق المعارضة؟!

➢ لابد أن نفرق بين الشيوعي الاقتصادي الذي يمكن أن يكون مسلمًا، وبين شيوعي ملحد، وأنا لا أستطيع أن أُخرج ما في عقله بغير الحوار، وفي الوقت نفسه ضد أن ينشر رأيه مستخدمًا المال العام، ومع أن ينشره على نفقته أو لدى ناشر خاص.

* وإذا لم يستخدم المال العام؟

➢ كما قلت لك: لا أستطيع أن أغيِّره بغير الحوار.

* وإذا لم يقتنع برأيك بالحوار والنقاش؟

➢ لا سبيل إلا الحوار، وأنا كما قلت: ضد المصادرة والمنع، وفي الوقت نفسه لا يمكنني أن أمنع أحدًا من أن يلجأ إلى القضاء ضده إذا قام بعمل إجرائي لنشر فكره الإلحادي؛ لأن البديل سيكون القتل والعنف، وإذا كنت أقول القضاء فذلك دون الاعتداء عليه باللفظ أو الإهانة أو.. لأن هذا كله ليس من أخلاق الإسلام.

* ولماذا لا نبذل جميعًا -وخاصة تيار الإسلام السياسي- جهدًا في غرس التسامح والرد على الفكر بالفكر؟

➢ الأصل -كما قلت- هو الحوار؛ لأن الأفكار لن تتغير حتى لو تم حبس صاحبها، وأنا أوافق على اللجوء إلى القضاء حتى نغلق باب العنف ضد المخالفين في الرأي.

* إذا وصل «الإخوان المسلمون» إلى الحكم، ماذا ستفعلون مع المخالفين لكم في الرأي من القوى السياسية والفكرية؟

➢ لن نفعل شيئًا! المشكلة أنك تنطلق من أرضية استبدادية بحكم تكويننا جميعًا، فأنت تتصور أن أي فصيل سياسي سيصل إلى الحكم سيجبر المجتمع كله على اعتناق أفكاره، وأنا ضد هذا، وما أفعله مع المختلفين معي الآن هو الذي سأفعله لو وصلنا إلى الحكم؛ وهو الحوار.

* ولكن كل الدول التي طبقت تصوراتها عن الإسلام السياسي انتهت إلى الاستبداد؛ مثل «أفغانستان» و«السودان» في فترة من الفترات، وفي «إيران» غير مسموح بوجود أي تيار سياسي خارج هذا الإطار، وفي بداية ثورة «الخميني» ذبحوا مخالفيهم في الشوارع!!

➢ أنت تتحدث عن فصيل سياسي محدد أو عن شيء هلامي؟ إذا كنت تتحدث عن «الإخوان المسلمين» فنحن ليس لنا تجربة في الحكم يمكن من خلالها أن تحكم علينا بشكل قاطع، والتجارب التي ذكرتها مختلفة، ونحن مع ما قدموه من خير وضد ما قدموه من شر، فهل يُعقل أن نوافق «طالبان» على أن تُلبس النساء خيامًا بالقوة أو تدمير التماثيل وتحريم الموسيقى وغيرها؟!! ولكننا مع

منعها لزراعة (الأفيون) مثلاً؛ حيث كانت «أفغانستان» أكبر دولة منتجة له في العالم!

* إذًا أنت مع تداول السلطة مع كافة القوى السياسية وحق الأقليات الفكرية والسياسية في التعبير والإعلان عن نفسها.

➢ نعم، والحوار لا تتم مواجهته إلا بالحوار أو القضاء حتى تغلق باب العنف، ونحن -«الإخوان المسلمين»- مع الحوار؛ فالشرع لا يسمح لك أن تتحكم في رقاب العباد من أولهم إلى آخرهم، وفي عهد النبي ﷺ خرجت بعض الناس عن الأصول؛ لأن هذه هي طبيعة البشر، ولو كان الله يريد أن يجعل كل الناس مؤمنين لفعل، ولكنه ترك الإنسان لاختياره.

* هناك تعبير اخترعه التيار الإسلامي السياسي ودعمته «السعودية»؛ وهو «الأدب الإسلامي».. فما تعريفك له؟ وهل من يكتب خارج هذا التعريف يصبح كافرًا؟!

➢ هو مثل مصطلح «الاقتصاد الإسلامي»، بل وصل الأمر إلى أن واحدًا كان يبيع أمام مسجد ويقول: هذا «عسل إسلامي»! وسألته: هل النحلة التي أفرزته اسمها «عائشة» حتى يسميه بهذا الاسم؟!!

مسألة صبغ أو إطلاق اسم إسلامي على بعض العلوم كان نتيجة لحالة الطغيان الاستعماري التي عانى منها العالم الإسلامي، وكان ردَّ فعل في مواجهة محاولات استئصال الهوية، وردود الأفعال عادة تكون متطرفة في مواجهة تطرف، وأنا لا أعرف ماذا يعني «الأدب

الإسلامي»؛ فهل لو كتب الشيخ «محمد الغزالي» قصة تصبح إسلامية؟! ولو كتب مثلاً «جوزيف» قصة ستكون غير إسلامية؟!

بصفة عامة كل شيء فيه مصلحة العباد فهو إسلامي، بل إن الشرع أسقط المحظورات في حالة الضرورات؛ فلو أنك في الصحراء وستموت من العطش ووجدت خمرًا فهي غير محرمة في هذه الحالة.

* تيار الإسلام السياسي يبذل جهدًا ضخمًا لمواجهة ما يتصور أنه يسيء إلى الإسلام في الفن والثقافة، في حين أنكم لا تبذلون أي جهد في مواجهة دور نشر تدعي أنها إسلامية تنشر عن الجن والعفاريت والخرافات؛ فهل السبب أنها معارك لن تعطيكم بريقًا إعلاميًّا؟

➢ المعارك بين بعض الإسلاميين والإبداع -بصراحة- يصنعها الإعلام؛ فلو تم نشر قصة لا تعجبني فلن يقرأها إلا العشرات، فيأتي الصحفي ويعطيها لواحد إسلامي، ويثور ضدها، وتبيع مائة ألف نسخة! وهذه معارك مصطنعة ووهمية.

* إذا كان بعض الصحفيين يبحثون عن معارك فبعض الإسلاميين يبحثون عن نجومية إعلامية!

➢ ليكن، فليس هناك شك في أن الإسلاميين والمتدينين عمومًا عندهم (إرتكاريا) من بعض المسائل ويضخمونها؛ مثل المخالفات الجنسية، والإسلام ليس معها بالطبع، ولكن لماذا نهتم بها أكثر من المخالفات السياسية، فأنا أرى الزاني أرحم من المستبد، وهذا بالطبع ليس دعوة للزنا؛ لأنني أهاجمه، لكن الأهم عندي هو الاستبداد والظلم، والإسلام جاء للقضاء عليهما.

ومن ناحية أخرى لا أريد أن يبدو الأمر وكأنه معركة بين الإسلاميين والمثقفين، وهناك مئات القصص والدواوين وآلاف الكتب خرجت ولم يتعرض لها أحد، المشكلة حدثت ثلاث مرات، وأرى أنه كان فيها نوع من التكبير والنفخ الإعلامي، مع وجود بعض المتطرفين الذين كتبوا بطريقة لا تليق.

***

لا نعترض على اختيار مسيحي رئيسًا لـ«مصر» بالانتخاب(*)

- الجماعات الإسلامية خطفت الإسلام من المثقفين.
- لا نقبل أن يعتبر أحد نفسه المتحدث الوحيد باسم الإسلام.
- لو كان الذين يحتلون «فلسطين» مسلمين لقاتلناهم.

كان طبيعيًا أن تثير الحلقة الأولى من الحوار المهم مع الدكتور «عبد المنعم أبو الفتوح» جدلاً واسعًا في أوساط تيار الإسلام السياسي وفي أوساط المثقفين وكل القوى السياسية؛ فالرجل من القيادات البارزة في جماعة «الإخوان المسلمين»، وما قاله هو خطاب تختلف تمامًا عما اعتدناه من عموم هذا التيار، كما أنني اخترت عناوين -من كلامه بالطبع- توضح هذا الاختلاف، وهذا حقي كصحفي طالما أنني لم أقدمها من عندي، وأعتقد أن الحلقة الثانية والأخيرة لهذا الحوار، الذي ينشر بترتيب خاص مع مجلة «الصدى» الإماراتية.. ستثير أيضًا جدلاً وتفتح الباب واسعًا لنقاش جادٍّ لهذه الأفكار الجديدة للرجل، ومنها تأكيده الحاسم أن تاريخ «مصر» لم يبدأ بدخول الإسلام، وأن «الإخوان» ضد اليهود الذين يحتلون «فلسطين» وليسوا ضد عموم

(*) جريدة «العربي»، العدد ٧٨٩، ٥ أكتوبر ٢٠٠٣م.

اليهود، ولا يوجد ثأر تاريخي بين المسلمين واليهود، وأنهم مع حق كل المواطنين في أن يرشحوا أنفسهم لرئاسة الجمهورية؛ بمن فيهم المسيحيون، وأنهم يؤيدون الاختيار الحر والديمقراطي للشعب أيًّا كان.

* لماذا يصاب تيار الإسلام السياسي بالهلع، هل يرى أن إيمان المسلمين هشٌّ يمكن أن يدمره كتاب؟ وحتى لو حدث، فالذي يغير إيمانه كتابٌ لا يستحق أن يكون مسلمًا.

➢ لا يوجد هلع، والحكاية فيها تضخيم وتكبير، فعندما يقدم النائب «مصطفى» -ولا أريد الدخول في تفاصيل- سؤالاً إلى وزير الثقافة يتم وضعه في أكبر من حجمه، ويقال: «الإخوان».. والمثقفون!! «الإخوان» ليسوا مشغولين بهذه القضية أصلاً.

* ولكن النائب «مصطفى» من «الإخوان» وعضو برلمان، ولديكم مجموعة برلمانية، والمؤكد استحالة قيامه بذلك دون موافقتكم!

➢ أنا موافق على أن يتقدم النائب بهذا السؤال؛ فهو يريد الحفاظ على المال العام، وأقصد أنه قام بإجراء عادي، والصحافة هي التي حاولت صنع معركة وهمية بين المثقفين و«الإخوان».

* أنتم متهمون بتجاهل القضايا الأهم في البلد، وتبحثون عن القضايا السهلة التي تعطيكم بريقًا وتحرج الحكومة.

➢ حتى يكون كلامك دقيقًا فلابد أن تعود إلى ما فعلناه في البرلمان ، فما تتحدث عنه هما سؤالان ضمن ثلاثمائة سؤال تخصُّ حياة الناس من صحة وتعليم وغيرهما.

* أنتم متهمون بدخول هذه المعركة حتى تبتزوا الحكومة بسبب حملة الاعتقالات التي جرت حديثًا في صفوفكم!

➢ غير صحيح، أولاً لا يوجد حملة اعتقالات، فمنذ إعلان قانون الطوارئ عام ١٩٨١م لم تكف الحكومة المصرية عن اعتقال «الإخوان»!! وما حدث مؤخرًا هو الاعتقالات التي اعتدناها! لأنه لا يوجد كيان قانوني تستطيع الحكومة تقديمه للقضاء.

* ولماذا هذا التوقيت بالذات؟

➢ لا يوجد اختيار للتوقيت، فهي صدفة، مثل لقائي معك، هل يمكن اعتباره اتفاقًا بين «الناصريين» و«الإخوان» على كذا وكذا؟!!

* يتردد أنكم تراجعتم ولم تخوضوا الحرب ضد كتاب «الوصايا» حتى النهاية؛ لأنه صادر عن مشروع «مكتبة الأسرة» الذي ترعاه السيدة «سوزان مبارك» حرم الرئيس!

➢ كل هذا همز ولمز لا علاقة له بالموضوع، وعندما يحدث خطأ في «مكتبة الأسرة» سنقف ضده، مهما كان اسم المسؤول عن هذا المشروع!

* لماذا يتحدث أفراد تيار الإسلام السياسي و«الإخوان» منهم باعتبارهم نواب الله سبحانه وتعالى على الأرض والمتحدثين الوحيدين باسم الإسلام؟!!

➢ لقد قلت مرة: إن المثقفين المصريين والعرب فشلوا في أن يحتفظوا بإسلامهم، وخطفته منهم الجماعات الإسلامية؛ فلماذا ينتقدون التيار الإسلامي لأنه يقوم بواجبه الصحيح تجاه الإسلام؟ ولماذا لا يقومون

هم بذلك، فهو إسلامهم أيضًا؟! وإذا فعلوا فسوف يساعدونني في ألا أكون وحدي المتحدث باسم الإسلام، ثم هل منع «الإخوان المسلمون» غيرهم من التحدث باسم الإسلام؟! لقد تصور المثقفون أن الذي يتحدث باسم الإسلام لابد أن يكون منتميًا لجماعة إسلامية، وهذا غير صحيح؛ وسبب ذلك هو الإرهاب الإعلامي الذي حدث في سنوات الاستبداد، وجعل المثقف العربي يخاف من التحدث باسم الإسلام حتى لا يُقال: إنه منتمٍ إلى جماعة إسلامية! وتتهمه الدولة بالتطرف! فآثر السلامة وابتعد، ليس جحودًا ولا كفرًا، فجمهور المثقفين العرب من كل التيارات يعتزون بدينهم، ولا يجب أن يزايد عليهم أحد.

* معنى كلامك الدفاع عن الذين يعتبرون أنفسهم المتحدثين باسم الله جل علاه!

➢ نحن لا نرضى بهذا ولا نقبله، وعلينا جميعًا أن نتصدى لهذا ونتمسك بالفكرة الإسلامية الصحيحة.

* ولكن تيار الإسلام السياسي دفع المثقفين إلى هذا الموقف؛ حيث وجدوا أنفسهم يتعرضون لخطر القتل والتكفير، ووجدوا أن الحكومة -مهما كان استبدادها- أرحم!!

➢ أنا لست معك، فكل تيار سياسي إسلامي وغير إسلامي فيه متطرفون، والجسم الرئيس للتيار الإسلامي معتدل ورشيد.

* ولكنكم الوحيدون الذين كنتم تواجهون المختلفين معكم بالقتل والتكفير!

➢ غير صحيح؛ فـ«البعثيون» قتلوا المخالفين لهم، و«الناصريون» قتلوا «سيد قطب» عندما كانوا في السلطة!!

* ولكن التيارات السياسية في «مصر» لم تحمل السلاح ضد المختلفين معها.

➢ هناك فصائل من «الناصريين» و«الشيوعيين» حملت السلاح، وأنا بالطبع ضد حمل السلاح من قِبل الجميع، و«الإخوان» يرون أن الطريقة الوحيدة للتغيير هي الديمقراطية.

* ربما يكون صحيحًا أن بعض الفصائل حملت السلاح ولكن ضد السلطة، في حين أن تيار الإسلام السياسي حمله ضد المختلفين معهم فكريًا.

➢ أنا ضد هذا طبعًا، وحتى نكون منصفين فالتيار الإسلامي عريض جدًّا، ونسبة الانحراف فيه قليلة جدًّا، وبسبب أنه تيار ضخم حمل بعض المنحرفين فيه السلاح مرة أو اثنتين، وربما لم تفعل التيارات الأخرى هذا لأنها ليست لها هذا الاتساع، وبالطبع ليس هذا تبريرًا، فأنا ضد هذا، و«الإخوان» وقفوا ضد هذا العنف، سواء كان موجَّهًا للمخالفين أو للسلطة، وكنا -وما زلنا- نرى أنه يحرق الوطن!

* ولكن موقفكم لم يكن حازمًا.

➢ كان حازمًا جدًّا! وبياناتنا ضد العنف؛ سواء الموجَّه للحكومة، أو السياحة، أو ضد أفراد؛ مثل «فرج فودة».. موجودة ومسجلة، وإذا كان البعض يتصور أننا لابد أن نواجه العنف والمتطرفين بالسلاح فهذا دور الدولة وليس دورنا.

* هناك اتهام لكم بأنكم في حالة وصولكم إلى السلطة ستذبحون المختلفين معكم في الشوارع؟!

➢ من يقول هذا الكلام يريد أن يصادر حقنا في العمل السياسي، فهو اتهام مرتبط بالمستقبل وليس بالواقع الحالي؛ أليس أولى بمن يقولون هذا الكلام أن يتصدوا للظلم والاستبداد الذي نعاني منه جميعًا، بدلاً من أن يشغل نفسه باستبداد قد يحدث أو لا يحدث في المستقبل؟! إن هذا الاتهام يمكن أن يطال أي قوة سياسية موجودة في الساحة.

* ولكن هناك مؤشرات في الواقع تدعم هذا التخوف؛ منها تجربتكم في النقابات المهنية؛ حيث استبعدتم المختلفين معكم، وأيضًا تجارب الدول التي ترفع شعارات إسلامية؟

➢ إذا كانت هذه التخوفات مبنية على خلل حدث في «أفغانستان» و«إيران»، فإن أشد منها تنطبق على «الناصريين» و«البعثيين» و«القوميين» الذين حكموا في «مصر» و«سوريا» و«العراق»، وقارن بين ما حدث للمعارضين في «إيران» وما حدث للمعارضين في «العراق»، وبنفس المعيار من حقنا أن نطالب بمنع «القوميين» و«الناصريين» من الوصول إلى السلطة؛ لأن تاريخهم أسود في الحكم! ومن ناحية أخرى نحن -كـ«إخوان مسلمين»- ليس لنا تجربة في الحكم حتى يخاف منا أحد، الوسيلة الوحيدة لمنع هذه التخوفات وعدم استخدامها لحرمان أي قوة سياسية من الوجود هو أن نتفق جميعًا على مبادئ وأصول وآليات منع استبداد أي تيار يصل إلى السلطة، ونتفق على أن الاحتكام للشعب وصندوق الانتخاب.

* وإذا وصلتم إلى الحكم بالأغلبية ماذا سيكون موقفكم من الأقليات السياسية والدينية والفكرية؟

➢ لا يعني الاحتكام للشعب أن الأغلبية تهدر حقوق الأقلية، بل على هذه الأغلبية أن توفر وتحترم جميع الحقوق لهذه الأقليات، فليس من المنطقي لو قررت الأغلبية مثلاً ذبح «الناصريين» أن نقول: إن هذا صحيح؛ لأنه تعبير عن رأي الأغلبية! في هذه الحالة ليست هذه ديمقراطية، ولكنها ستكون غابة؛ فالديمقراطية لا تعني أن تكون الأغلبية منفلتة.

* لكم مواقف ملتبسة ومتذبذبة من المسيحيين المصريين، وأنت تتذكر التصريحات الشهيرة لمرشد «الإخوان» وقتها «مصطفى مشهور» حول أهل الذمة، وليس من حقهم دخول الجيش وغيره؟!

➢ ولكنه نفاها تمامًا!

* ومع ذلك يظل موقفكم ملتبسًا ومتذبذبًا؟

➢ تاريخنا منذ «حسن البنا» وفي مواثيقنا وكتاباتنا تؤكد أننا أكثر التيارات حفاظًا على حقوق الأقلية، إذا جاز أن نقول: «أقلية»؛ لأنني لا أحب هذا اللفظ، ونحن كـ«إخوان» نرى أن الحضارة الإسلامية في «مصر» بناها المسيحيون والمسلمون، وأنا لا أتكلم عن الدين، ولكن عن الحضارة.

* وماذا تقصدون عندما تقولون: إن «مصر» دولة إسلامية؟

➢ نقصد أن مذهبها السياسي يستند في مرجعيته إلى الإسلام، بالضبط كما تقول مثلاً: «دولة اشتراكية»، والشرعُ يُعرِّف الدولة الإسلامية بأنها الدولة التي غالبية أبنائها من المسلمين.

* وماذا تقصد بالمرجعية؟

➢ أيُ شعب له مرجعية عُليا هي القيم والأخلاق، وهذه تستمد من الدين، ومرجعية قانونية وضعية هي الدستور، والدستور لا يمكن أن يوضع منفصلاً عن المرجعية الأولى، وأنا أتحفظ على من يقول: «إن «الإخوان» يريدون دولة إسلامية»؛ لأن الدولة القائمة فعلاً إسلامية، ونحن فصيل سياسي مسلم نسعى للإصلاح بأفكارنا التي نعتقد أننا استخرجناها من الإسلام، وهذا لا يعني أن آراء الآخرين خطأ أو غير إسلامية، فنحن لا نحتكر الإسلام لأنفسنا.

* وكيف تنظرون في هذا الإطار لتراث «مصر» العريق من الفرعونية والقبطية وغيرهما؟

➢ البعض يعتقد أن تاريخ «مصر» يبدأ منذ دخول الإسلام، وهذا غير صحيح، فهذا التراث العظيم نعتز به، والإسلام ليس دينًا استئصاليًا، فهو مكمل للحضارات والثقافات التي قبله، ولا يهيل عليها التراب، والرسول ﷺ له حديث رائع يقول فيه: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»، وهذا اعتراف بأن الخير موجود فيما سبق الإسلام ويجب الاستفادة منه.

* إذن أنت مع تساوي حقوق المواطنة بين المسيحيين والمسلمين ولست مع دولة دينية؟

➢ «مصر» وطن لكل من وُلد فيها ومن يعيش فيها، وتتساوى حقوق المواطنة بين الناس أيًا كانت دياناتهم، فنحن لسنا مع دولة دينية، ولكننا نطالب بدولة مدنية مرجعيتها الإسلام.

* وهل من حق المسيحي أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية وللانتخابات البرلمانية؟

➢ هذا حق لأي مواطن بغض النظر عن ديانته وعقيدته السياسية، فحتى لو كان زنديقًا فمن حقه أن يرشح نفسه! وإذا اختاره الشعب فهذه إرادته؛ لأن البديل في هذه الحالة هو أن تحارب الشعب وتصبح مستبدًا، وهذا نرفضه تمامًا، فنحن مع ما يختاره الشعب أيًا كان، وعلى الأغلبية أيًا كانت أن تنفي لدى الأقلية أي مظنة اضطهاد أو ظلم، حتى لو تنازلت عن بعض حقوقها، وهذا واجب شرعي، فالرسول ﷺ يقول: «من ظلم معاهدًا -يقصد غير المسلم- أو انتقصه حقه فأنا حجيجه يوم القيامة»؛ أي سيقف ضده يوم القيامة! وهذا طبيعي؛ لأن الأقلية -أي أقلية- لديها دائمًا هاجس الظلم والاضطهاد، وهذا ما جعل خليفة المسلمين «عمر بن الخطاب» ﷺ يأخذ موقفًا حازمًا عندما ضرب ابن «عمرو بن العاص» -والي «مصر»- مسيحيًا مصريًا؛ حتى لا تكون هناك مظنة استبداد من جانب الأغلبية.

* موقفكم من اليهود عنصري؛ ففي خطابكم تؤكدون أنكم ضد «إسرائيل» لأنها من اليهود؛ فهل لو كان الذين يحتلون «فلسطين» من مسلمي «ماليزيا» مثلاً كنتم ستتركونهم؟

➢ نحن ضد اليهود الذين يحتلون «فلسطين»، ولسنا ضد عموم اليهود.

* وهل يوجد ثأر تاريخي بين المسلمين واليهود لأن بعضهم خان المواثيق مع النبي ﷺ؟

➢ لا يوجد هذا الذي تسميه ثأرًا، فهناك مسيحيون حاربوا في صفوف الروم، وهناك مسلمون خانوا النبي ﷺ، هذا المفهوم ليس له أساس شرعي أو تاريخي، نحن ضد اليهود الذين يحتلون «فلسطين» وضد الأمريكيين الذين يحتلون «العراق»، ولسنا ضد الشعوب المسيحية، ولو احتل مسلم أي شبر عربي فالشرع يقضي بحمل السلاح ضده؛ لردّه عن ظلمه إذا لم يعد عنه.

* تحاربون الاستبداد في الداخل، ولكننا لا نسمع صوتكم في مواجهة دول مستبدة مثل «السعودية».

➢ نحن ضد الاستبداد بكل أشكاله، ومن أي نظام أيًّا كان، ولكن الذي يقف ضد استبداد أي دولة أو نظام هو شعبها، فـ«الإخوان» واجهوا الاستبداد في «سوريا» و«العراق» وفي غيرهما من بلاد العالم الثالث، وتعرضوا للقتل والسجن، ونحن نرى أن النظام السعودي الآن يقوم ببعض المراجعات المهمة، ونأمل أن يقدم نموذجًا للحريات الحقيقية والديمقراطية التي تتفق مع مبادئ وقيم الإسلام العظيم.

* تطالبون بالديمقراطية وتداول السلطة في حين أن التغيير في جماعة «الإخوان المسلمين» لا يتم إلا بالموت!

➢ هذا مرض في كل التيارات والأحزاب السياسية، ونحن جميعًا في المجتمع المصري نعيش أزمة هي غياب الحريات على المستوى السياسي والاجتماعي، ونحن مثل كل التيارات متأثرون بذلك، سواء في نشأة المواطن أو في تعليمه أو تربيته أو في ممارسة حقوقه السياسية والإنسانية، و«الإخوان المسلمون» يعيشون أزمة أشد؛ هي عدم

الشرعية التي فرضها علينا النظام، وبالتالي نحن أكثر تيار لا يستطيع التعبير عن أفكاره وممارستها، ومع ذلك فنحن تقريبًا التنظيم السياسي الوحيد الذي أجرى انتخابات من القاعدة إلى القمة مرتين في عامي ١٩٩٠م و١٩٩٤م، وكان المفترض أن تتم كل أربع سنوات، ولكن تم القبض على القيادات وتم تقديمهم إلى محاكمة عسكرية! وكانت التهمة شريط (فيديو) مسجلاً عليه اجتماع مجلس شورى «الإخوان» لانتخاب مكتب الإرشاد! وكنت واحدًا من الذين سُجنوا خمس سنوات! وفي هذه الانتخابات لم ينجح «سيف الإسلام حسن البنا»؛ رغم أنه ابن مؤسس «الإخوان»! ونجح د. «محمد حبيب».

* بصراحة عندي تخوُّف من أن تكون هذه آراؤك وليست آراء «الإخوان»!

➢ بمنتهى الصدق ما قلته يعبر عن الشريحة العامة لـ«الإخوان»، ولكن مثلنا مثل كل التيارات لدينا متطرفون ومنغلقون، ولكنهم قِلة، وعلينا أن نحكم على الأغلبية، فـ«الناصريون» مثلاً يدافعون عن التكافل الاجتماعي، ولكن ستجد منهم رأسماليين!

ثم لماذا أستمر مع تيار سياسي لا يتوافق مع أفكاري؟!

أجرى الحوار: «سعيد شعيب»

توضيح من د. عبد المنعم أبو الفتوح

في رسالة تلقتها «العربي» من د. «عبد المنعم أبو الفتوح» طلب نشر الإيضاح التالي بخصوص حديثه المنشور في العدد الماضي:

- فيما يتعلق بنشر عبارة: «لسنا ضد حرية الإلحاد»، لا يُفهم منها حرية نشر الإلحاد بين الناس؛ مما يعد مصادمة للقيم الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المصري، ولكنني أذكّر بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، وأن الكفر يواجَه بالحوار ما لم يقسم الكافر بالإساءة لقيم المجتمع الأساسية؛ وأولها الدين، وأن واجبنا تجاهه هو نشر الإيمان والدعوة إليه.

وتعقيب من «العربي»:

العربي: نشرنا نصّ تعقيب د. «عبد المنعم أبو الفتوح»، وقد أشاد في اتصال هاتفي بالأمانة المهنية البالغة لزميلنا «سعيد شعيب» الذي التزم حرفيًا بنصّ كلمات د. «أبو الفتوح»، وعرض عليه النصّ مكتوبًا قبل دفعه للمطبعة، ولسنا في حاجة لتأكيد أن العناوين ملك للجريدة كما تقضي الأصول المهنية، طالما أنها مستقاة بأمانة من نص الحوار.

***

The Islamic path to reform

The concept of comprehensive reform that the Islamic current and the Muslim Brotherhood seek to promote is one that involves the sustainable development of man, state and society. It is based on freedom, which is a right for all.

Education should be modern and stimulate creativity, not just memory. Concerning the economy, We need to introduce a fair distribution of income while encouraging the development of human capacities. Not only do we need to create jobs but also a social security safety net. Encouraging small businesses is one way of creating more jobs.

The nation should have string civic institutions to protect its rights, including syndicates, non-governmental organizations, and a free press. Also, our administrative apparatus will need to be rehabilitated and modernized.

Citizenship is the basis of life in a democratic society. Every citizen is equal to all others, regardless of doctrinal differences. Citizens should choose their government through free and fair elections.

There is only one Islam, and it applies to both men and women. A healthy society is one in which all individuals, regardless of gender, are entitled to act with probity and spontaneity, without tensions, and with no embarrassment or fear of communal contact.

Islam wants Women to put their mind and efforts at the services of society. As for their bodies, this is something of no consequence to society and should not even be a subject for debate. Hijab is merely a question of identity and belonging, just as saris are for Indians.

The Muslim Brotherhood engaged in military activities when the country was under occupation. This is a historical fact, but there is no room for its repetition in a country governed by its own citizens, regardless of how divergent they may be in opinions and attitudes.

Towards freedom's light

I remain convinced that peaceful marches and civilized demonstrations are the highest accomplishment of civilized society and conclusive evidence of its vitality and strength.

Egyptians have never ceased in their demands for comprehensive reform. The most important step towards reform is banning the monopoly of power, as experience tells us that this is the greatest disaster that can befall a nation. Such experience generated constitutions decreeing that any ruler has to be elected directly by the people and for no longer than two consecutive terms. Is that more than Egyptians deserve?

At this critical moment, as dreams of empire grip American rulers, we must join hands and summon up our courage. Our enemies want to control our future and our children's future. They wants us eat, read and pray as they see fit. Their pretext is "reform", but we all know this is not true. They want to destabilize our region, then slowly drip-feed us new ideas, concepts and values until we can't help but agree.

We hope that Egypt survives this worrying time, peacefully and calmly. Egyptians, and foremost amongst them the Muslim Brotherhood and nationalist forces, are a civilized people rooted in their history and its stability. The wise have to realize that comprehensive reform should not be treated as an issue of "security ".

It remains our duty to create new realities on the ground, and prevent hypocrites and opportunities from meddling with them.

التجديد بدأ منذ عهد الرسالة والإسلام نفسه دعوة تجديدية ضد من قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

التجديد مطلب هام وحقيقة من حقائق الحياة .. سارت عليه كل الأمم .. وبه تمكنت من التغلب على رواسب الماضي و بنت مستقبلها على أساس من النجاح والتوفيق.

في زماننا هذا انطلق التجديد من أفكار «الكواكبي، الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، حسن البنا، شلتوت، الغزالي، القرضاوي».

هذه العقول انطلقت في آفاق الفكر والحركة بشرت الناس إن الخطاب الإسلامي يتجدد ويتطور في كل أفق.

